قصص قصيرة

قَرْن غزال

خيرى عبد الجواد



قرن غزال

تصميم الغلاف: عمر جيهان
لوحة الغلاف: منمنمة من فن الواسطى
الطبعة العربية الأولى ٢٠٠١
دار سندباد للنشر والتوزيع
رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٣٨٢٦
الترقيم الدولى I.S.B.N
٩٧٧ - ٥٩٦٦ - ١٤ - ٠



قرن غزال

العشة

فى لحظة من لحظات كشوفاته الخاصة، والتى بدأت تُنغِّص عليه حياته فى الآونة الأخيرة، خاصة، حين يوغل فى الميتافيزيقا فيطير من أمام زوجته مبحراً نحو عوالم لا يمكن أن تراها أو تدرك كنهها. فقط تُشوِّح بكف يدها، وتمسح العرق عن جبينها قائلة: أف. تقولها طويلة ممطوطة وملحنة، ظل يسمعها فى هذا الفصل من السنة طوال خمسة عشر عاماً هى عمر زواجه منها، وبسماعه هذه الأف. تكون زوجته قد أعلنت عن بدء فصل صيفى جديد وساخن.

فى لحظة، كان قد توصل لحل عبقرى سوف يُخلِّصهما وإلى الأبد من هذا الحَر الجهنمى، هذا الحَر الذى يجعله طوال تسعة شهور لا يطيق سماع صوتها أو الاقتراب منها، فقط يجلس أمامها عارياً إلاّ من سروال، وعلى ركبتيه يضع فوطة يقرِّبها كل خمس دقائق من وجهه وصدره، ماسحاً عرقاً لزجاً له رائحة الشمس وذرات الغبار. كانا فى وقت الظهيرة يبدآن الطفو فى صهد الشمس ولا يخرجان من ذلك الجحيم إلا مع حلول الظلام، ساعتها، يزفران زفيراً حاراً وصادقاً، وكأنهما يفرغان الهواء الساخن من جسديهما ليحل محله هواء الليل البارد المنعش. ومن بين صوت أزيز المروحة وتكتكاتها، قال فجأة وكمن رجع تواً من تهويماته:

وجدتها. فنظرتْ إليه شذراً بينما تمسح حبات عرق انزلقت إلى صدرها: فيه ايه؟

قال ومسح وجهه وصدره بالفوطة: تعرفى، لو عملنا عشة فوق السطوح نضرب عصفورين بحجر واحد: نحمى الشقة من أشعة الشمس صباحاً، هذه واحدة. ونقضى فيها فترة المساء والسهرة، وممكن ننام فيها أيضاً.

كانت الفكرة بسيطة للغاية، ورغم بساطتها لم يفكر فيها طوال سنوات الحَر، وعلى الرغم من اعترافه دوماً بأن الأفكار العظيمة لا تأتيه صيفاً، إلا أن المعجزة حدثت وجاءت الفكرة بنت صيف واضحة وضوح شمس يولية، حتى أن زوجته اكتفت بالحملقة فيه غير مصدِّقة أكثر من ثلاث دقائق، أطلقت آخرها زفرة حارة أعقبتها بـ أُف ليست كالأفات السابقة، لكنه لم يستسلم لحالة الذهول التى انتابت زوجته، بل جاء بورقة وقلم وأخذ يحسب الأطوال والخامات المطلوبة والتكلفة بحماس أنساه الحَر اللافح المحيط بعروقه وعظامه التى كادت تتحمَّص، بل حتى أنساه الفوطة على ركبتيه فأخذ العرق يتساقط على الورق ويمحو ما كان يخطه، إلا أنه واصل كفاحه مع الأفكار التى من كثرة تزاحمها أربكت مخيلته، من بين الخامات الكثيرة التى تصلح اختار أرخصها، سوف يختار مواسير الستائر، أربعة قوائم وعامود فى المنتصف وتثبت جميعها بالإسمنت والرمل فى المسلح،

أما التعريش فالأنسب هو الحصير المعمول من البوص فيعطى ظلالاً ويسمح بمرور الهواء، وحين انتهى من حسابات دقيقة للأطوال وترجمة كل ذلك لأرقام مالية، أدرك أن التكلفة مناسبة، فارتدى هدومه وخرج بينما زوجته تعوّج فمها يميناً وشمالاً وتشيعه بـ أف خرجت من أنفها هذه المرة.

فى الطريق فكر فى فكرته فتعجب وضرب كفاً بكف، له خمسة عشر عاماً لم تواته فكرة بهذا العمق رغم أنه لم يتغير شيء، فمازال يسكن فى الدور الأخير، ومازالت حرارة الشمس تصيبه أحياناً بالجنون، فيملأ البانيو بالماء البارد ويستلقى داخله فارداً جسده، ومصراً على أن تأتى له زوجته بالطعام فى الحمام، ومن خلال الميتافيزيقا يتخيل نفسه على الشاطيء فى الساحل الشمالى فيشعر بسعادة، لكنها سعادة مؤقتة على أية حال، أما هذه الفكرة فهى دائمة. انتهى من تجهيز لوازم العشة، وشرع من فوره فى التشييد، بعد أن حصل على إجازة لمدة أسبوع، قدّر أن البناء سوف يستغرقه، وتقمّصته روح مايكل أنجلو، واستدعى ما قرأه عن سيد البناءين، وبروح ملهمة كان يُثبِّت القواعد، ويملأ الفراغات ويقيم الأسقف، ونسى الشمس التى تلهب جسده بسياطها، ونسى زوجته، وغاب بأفكاره إلى ما وراء الأفكار والطبيعة، فتذكر مثلاً أن يوم مولده كان علامة فارقة فى تاريخ أمه وأمته العربية من المحيط إلى الخليج،

فبينما كانت أمه تصارع الطلق، وبينما هو يعلن عن ثورته
على بطن أمه مستقبلاً أول وجوده بصرخة سمعتها الأرض
والسماء، كانت ثورة الثالث والعشرين من يوليه تعلن عن
نفسهاهى أيضاً، لقد حاول مراراً الخروج بدلالة ما تربط بين
الثورتين: ثورة مولده، وثورة يولية دون جدوى، لكن ها هو
فى تلك اللحظة يتوصل إلى قيمة ما، لعله كان الملتزم
الوحيد بمبادىء الثورة الستة ومطبقاً بنودها على أسرته
الصغيرة فى دقة وصرامة، وبينما يبنى ويُشيِّد اكتشف أيضاً
أن الإنسان لابد له أن يموت، وأوجد خيطاً بين لحظة الميلاد
ولحظة الموت، واقترب أكثر من حقيقة الوجود الإنسانى،
وكاد يلمس بيده فكرة الجنة والنار، والوجود والعدم،
والعلاقة بين الكتلة والفراغ، والزمن الوجودى، وأنه لا أحد
فى هذا الكون استطاع هزيمة الزمن، حتى الأنبياء أنفسهم لم
يفروا منه، وصارت العشة تقترب من كمالها وتظهر شيئاً
فشيئاً كبناء ملهم، صنعته يد صنّاع ماهر على مشارف
اكتشافات فلسفية خاصة وعميقة، وبزهو كان يلمح الجيران
يقفون على أسطح المنازل المجاورة يقضون الساعات فى
تأمل هذا البناء المبهم بانبهار ودهشة، أما زوجته، فلم
تكلّفْ نفسها عناء إلقاء نظرة واحدة على ما يفعله، وربما حزّ
هذا فى نفسه قليلاً، لكن عزيمته لم تفتر، بل على العكس
ازداد حمية وإلهاماً، وكما قدر، فقد اكتمل البناء فى

أسبوع، ووقف يتأمل العشة التى صنعها بيديه غير مصدق، وتساقطت دمعتان من عينيه وانزلقتا فوق خديه فتركهما، تلك هى المرة الثانية فى حياته التى بكى فيها، كانت المرة الأولى حين ماتت أمه فبكى بكاءً متصلاً مدة أسبوع، فى البداية لم يكن يعرف كيف يبكى، وظل صامتاً ومحملقاً فى ذهول لجسد أمه المُسجَّى، بينما الجميع حولها يبكون ويصرخون، وخاف عليه الجميع مما اضطر أخوه الأصغر لأن يلكمه فوق فكه لكمة أطارت سنتيه الأماميتين، وشعر بألم لا يطاق، لحظتها فقط، إنفجر فى بكاء متصل لم ينقطع مدة أسبوع، بعد ذلك توقف تماماً عن البكاء رغم عاطفيته الشديدة تجاه المواقف الميلودرامية والتى تزامنت مع صعوده وهبوطه فى السلم الوظيفى والاجتماعى على السواء، فمنذ أن حصل على شهادة مدرسة التجارة المتوسطة وتعيينه كاتب سكرتارية ومحفوظات بإحدى الهيئات الحكومية، أيقن أن حياته الفنية انتهت إلى الأبد، ففى صباه، كان يحلو له الابتعاد عن صحابه متوغلاً فى عزلته وفى مسالك لا يعرفها غيره، كان يترك قدميه تقودانه إلى أحراش بولاق الدكرور ومزارعها، وحتى خراباتها جارياً تارة وراء (أبى فصاد) أو متأملاً فى الوطاوط وهى تحوم حوله ناسياً نفسه تماماً مع الضفادع التى تكتظ بها المصارف والترع منصتاً بأذنيه المرهفتين لنقيقها ذى الإيقاع الخاص، حتى أنه كان

يرجّع نقيقها بأصابعه فى فرقعات منتظمة، أو على ركبتيه بكف يده، ومن فمها تعَلّم إيقاعات الشعر العربى، ومنذ تلك اللحظة، أيقن بولادة شاعر كبير ينتمى لأسلافه عبر خمسة عشر قرناً، وبقليل من الحظ يمكن له هدم عمود الشعر وخلق عاموده الخاص، غير أن وظيفته، ولقائه بزميلته فى العمل والتى سوف تصبح فيما بعد زوجته، قد جعلا شيطان الشعر ونقيق الضفادع يهجرانه إلى الأبد.

لم يكن ما يراه أمامه الآن من قبيل المصادفة، فقد كان مؤهلاً دومًا لصنع شىء ما حقيقى وعبقرى، وها هى الفرصة جاءت، وها هو يلمح نظرات الإعجاب فى عيون الجيران الذين تقاطروا على الاسطح ليروا ذلك البناء المدهش الذى بدأت معالمه فى الظهور: عشة مربعة الجوانب، كل مربع صنع كما لم تُصنع المربعات من قبل، وكل مربعين يكوّنان زاوية هى النموذج المستحيل للزوايا، والاعمدة مغطاة بعناية فائقة بالبوص المجدول، وفى المنتصف تماماً، كان يقف العمود الأساسى والذى ذكّره ببهو أعمدة الكرنك، أعلى قليلاً من كل الأعمدة، مما جعله يحمل السقف بحيث يبدو مائلاً على الجوانب، وقد التف حوله عود لبلاب ذو أوراق خضراء عريضة، وبراعم نامية فى كل أطرافه، أما باب العشة، فقد رُصدّت على جانبيه أصص الزهور والنباتات الملونة. وبضربة حظ حقيقية، كان قد حقق ما ظل يتمناه

طوال حياته: أن يوجد شكلاً للعمارة العربية يتفق مع المضمون، لقد أراد تحقيق ذلك حين تحوّل من كتابة الشعر إلى النثر فكتب عدة قصص يرد بها على الأجيال السابقة التى قال عنها أنها تحس بالدونية تجاه الغرب ولا تعتز بعروبتها، أما هو، فقد استوحى قصصه من البيئة الشعبية، ومن اشكال الحكى العربى، لكن نقاده الخونة تجاهلوه تماماً فكف عن الكتابة، وكاد يكره مشروعه العربى، أما الآن، فقد أنجز ما عجز عن إثباته شعراً ونثراً، وكما أتته فكرة بناء العشة بغتة، فاجأته فكرة اخرى لا تقل عبقرية وبساطة: سوف يدعو الأهل والأصدقاء والجيران ويفتتح العشة باحتفال تُقدّم فيه الحلوى وزجاجات المياه الغازية، فربما كان هذا البناء هو الإنجاز الحقيقى فى حياته الأكثر اكتمالاً وفرادة والأقرب إلى الواقعية الاشتراكية، التى رضع لبنها منذ أوائل الخمسينات، وفشل فى تطبيقها مراراً، ذلك انه منذ أن تزامن مولده مع الثورة المجيدة، كان كلما وضع الوطن خططاً خمسية، وضع هو أيضاً خططاً خمسية لحياته باءت جميعها بالفشل، وبعد ثورة التصحيح بقيادة الرئيس المؤمن، اضطر فى ظل ظروف الوطن السريعة والمتلاحقة، لوضع خطة يومية لكل يوم على حدة وحسب طبيعة اليوم، ففى كل صباح كان ينظر إلى السماء قبل شروق الشمس بدقائق، وبعدها يُقرِّر الخطة التى يسير بها اليوم، وأتت

خططه أكلها فقد كان يعبر يومه بسلاسة دونما يُعكّر صفوه، وها هو يُغيِّر من مساره فيضع خطة أسبوعية لبناء العشة تثمر ذلك البناء المدهش والذى يعبر به القرن الواحد والعشرين بخطى واثقة، ذلك القرن الذى لا يستطيع ملاحقة منجزاته العلمية واكتشافاته اليومية، ومحاولة فهم تلك المعادلات الكيميائية المعقدة، لقد أرقتّه مثلاً فكرة الهندسة الوراثية حين وقعت عيناه على النعجة دوللى فى إحدى جرائد الصباح آذنة ببدء عصر جديد من الاستنساخ، وحاول محاولة جادة فهم بعض المصطلحات من قبيل الشفرة الوراثية والجينات والكروموسومات والحامض النووى والأحماض الأمينية "والدى إن إيه" وغيرها من الكلمات، كان يشعر بوحدة قاتلة وهو يفكر فيها، وفى حركة البويضة داخل رحم صناعى، ولم يكن يجرؤ أن يسأل زوجته كيف يحدث ذلك وهى الخبيرة بالأوضاع المثلى للبويضة، فقد أجهضت اثنتا عشر مرة خلال خمس عشرة سنة ولم تفلح مرة واحدة فى استنساخ قطعة لحم تحمل اسمه وصفاته، وفكر أنه فى القريب العاجل قد يتمكن من ذلك، فالعلماء يعملون ليل نهار من أجله.

تسرب الخبر إلى جيرانه ومعارفه، وأراد هو أن يكون أكثر تحضراً فكتب دعوات أودعها أظرفاً وكتب أسماء كل من يعرفه، وفكر أنه لو أرسلها بالبريد، فسوف تتكلف

كثيراً، وربما قد لا تصل إلى أصحابها فى الموعد المحدد ، واستقر رأيه على تسليمها شخصياً يداً بيد، وشرع من فوره فى تنفيذ ذلك، فكان يخرج صباحاً حاملاً حقيبة (هاندباج) واضعاً فيها خطابات الدعوة، ماراً على كل معارفه، ولم تكن الكلمات المتبادلة بينه وبين مدعويه لتزيد عن بعض الجمل القصيرة والمكثفة، مثل: يسعدنا أنا وزوجتى تشريفكم غداً، أو مثل: سوف نفتتح كوخنا الصيفى ويسرنا وجودكم بيننا. ويصاحب ذلك دائماً انحناءة خفيفة مع وضع يده على صدره، وكم كانت سعادته حين يعلق أحدهم: ها.. لقد رأيناه من سطح منزلنا وهو فى الواقع تُحفة. أو: كم نتمنى الجلوس فيه لدقائق. أو: لقد أوحى لنا بعمل مثله. فيمتلىء زهواً وخيلاء، ويشعر بأن العمر لم يذهب هباء، وأن لديه الكثير من المشاريع التى لم يعلن عنها بعد، وانطلق فى وضع اللمسات الأخيرة، فأحضر مزيداً من أصص الزهور الملونة، وزرع على باب العشة فرع عنبة بناتى وأشجار لبلاب وورقاً فضياً، وعلق فى الداخل أحواض بلاستيك تتدلى منها نباتات البوتس الخضراء الزاهية، ووضع فرعين من لمبات صغيرة ملونة تضىء وتنطفىء فى حركة دائمة، ثم مزيداً من لمبات النيون ذات الإضاءة البيضاء القوية، على أن ما كان يُؤَرِّقه فى الواقع هو، أن أساس العشة لم يكن بالمتانة الكافية، فقد ثبتّ الأعمدة فى صفائح حبّش عليها

بالرمل والإسمنت، لكن الصفائح نفسها غير مثبتة فى شىء فلو افترضنا وقوع صفيحة، ولو أنه افتراض بعيد الحدوث، فسوف تجر معها كل الصفائح، وكل الأعمدة وتنهار العشة، استبعد على الفور تلك الأفكار السوداوية فليس هذا وقتها، وفى إمكان تلك الأفكار تدمير فرحته، لكنه لم يستطع الابتعاد عنها، خاصة حين يهب الهواء فتمتلىء به العشة فتهتز اهتزازات غير مريحة، وأخرج نفسه مرة أخرى من تهويماته، وأخذ يتفقد كل شىء للمرة الأخيرة حتى اطمأن من أن كل شىء سوف يتم وفق ما خطط له، سوف تكون ليلة من ليالى العمر، اختارها بدقة وعناية وجمع فيها أربع مناسبات كبرى: يوم ماهبّ الجيش وثار، ويوم مولده، ويوم زواجه، وأخيراً يوم اكتمال بناء العشة، وابتسم ابتسامة داخلية هو وحده يعرفها كلما شعر بالرضا عن نفسه.

وأخيراً حلّ اليوم الموعود، ارتدى أغلى وأعز ملابسه إلى نفسه، قميص وبنطلون زواجه، ورجع مثلما كان منذ خمسة عشر سنة، ظهر أصغر من سنه الحقيقى بذقن حُلقت بعناية، وشعره المجعد اختفى بعد أن استعان بسيشوار زوجته على فرده ودهنه بزيت الزيتون فظهر لامعاً ومصقولاً ومرسلاً على جبينه، وأراد فى هذه الليلة أن يرتدى جديداً فاشترى جوربين وحذاءً من نفس لون القميص والبنطلون مظهراً بذلك ذائقته الجمالية فى اختيار ألوان متناسقة وحالمة، أما زوجته، فقد كانت أكثر بساطة منه، أصرت على ارتداء حلة قديمة لم

تكن ترتديها إلا فى المطبخ، لكنها كانت نظيفة ومعطرة، ونظر إليها وهى تقف بجانبه فى شرف استقبال المدعوين، فأحس أنه لم يرها بهذه الشفافية من قبل، وبدأ المدعوون يتوافدون، ووقف وابتسامته لا تفارق شفتيه طوال الوقت موجهاً ومشيراً إلى أن الاحتفال فوق، حيث السطوح، حتى إذا ما أحس باكتمال المدعوين، انضم هو وزوجته إليهم، ووقف يتأمل الجمع المحتشد من أجله أمام باب العشة، وقد ألصق عليه شريطاً من السلوفان الأحمر الشفاف، وبجانبه وضع مقصاً اشتراه خصيصاً لهذه المناسبة، وشعر بامتنان حقيقى لكل هؤلاء، واجتاحته لحظة رومانتيكية فكاد يبكى، لكنه تماسك، واعتلى طبلية كانت ملقاة فوق السطوح، وتقمصته روح مارلون براندو كما شاهده فى الأب الروحى، فقال بصوت جهورى: السيدات والسادة، الإخوة والأخوات، سوف أكون ممتناً لكم مدى حياتى أنا وزوجتى لتشريفكم وقبول دعوتى، فهذا دَين فى عنقى، وسوف يبدأ احتفالنا معاً بقص شريط كوخنا الصيفى المتواضع، والآن، أقوم بشرح مبسط ومختصر حول الفكرة، وكيف باغتتنى فجأة، وكيف بدأت مرحلة التنفيذ، والخامات المستخدمة.

وانطلق فى حديثه وبدا أن لا شىء يستطيع إيقافه، وكان يمزج حديثه بالشعر أحياناً، وبالحِكَم والأمثال الشعبية والنثر الذى كان يرقى كثيراً، فيصل فى بعض المواضع إلى ذرا لم يحلم بها من قبل، وصفّق الحضور فى بعض الفقرات فاضطر

لإعادتها، حتى زوجته صفقت له وشعرت أنه الآن فقط أصبح مُلهَماً وعظيماً. ولما انتهى، قاد الجميع إلى باب العشة فقص الشريط، وتلقى تهانٍ لا حصر لها، وأخيراً دخلوا العشة فكانت الموائد ممدودة على جانبيها، وفوقها رُصّت أطباق الحلوى وزجاجات المياه الغازية، وانقسم المدعوون إلى مجموعات صغيرة تحدثت فيما بينها، وكان هو وزوجته يمران على كل مجموعة، يعطيانها من وقتهما دقائق لينتقلا إلى أخرى وهكذا، ولم تكن الأحاديث الدائرة تخرج عن هذا البناء الرائع وعن تلك النسمات الطرية المنعشة التى يحسون بها، وعن الخطبة الرائعة التى سمعوها من فمه، فيشعر أن قلبه يكاد يتوقف من السعادة، ويمسك نفسه عن البكاء بصعوبة ومع الساعات الأولى لفجر الرابع والعشرين من يوليو بدأت الريح تشتد قليلاً فتهتز العشة وتتمايل مع كل موجة هواء، وما حدث بعد ذلك كان مفاجئاً، حتى أن أحداً لم ينتبه له، فقد جاءت موجة هواء قوية، ومالت العشة بشدة على أحد جوانبها، ثم اعتدلت ومالت مع موجة أخرى، وأخذت تطقطق، بينما انفلتت قوائمها، وجرى هو إلى عامود المنتصف، فاحتضنه وطوقّه بساقيه متشبثاً به والدهشة على وجهه، وأخيراً انتبه المدعوون للعشة وهى تطير فى الفضاء، ورأوه يرتفع مع العشة متشبثاً بالعامود، وأخذا يعلوان حتى غابا عن الأنظار.

* * *

عفريت
سيد دعبس

فى فجر يوم الثالث والعشرين من يوليو، تحديداً فى الساعة الثالثة من صباح عيد الثورة المجيد - عيد الوطن - وعندما يكون سيد دعبس عائداً من مشواره اليومى، سوف تنشق الأرض أمامه ويخرج له عفريت حقيقى، لكن سيد دعبس، الرجل العلمانى المثقف ثقافة مسرحية رفيعة المستوى، لن يُصدِّق أنه أمام أحد كائنات ما وراء الطبيعة، وأن أحداً غيره لن يرى ما سوف يراه الآن.

لحظة القيلولة، وبينما قرية صفط اللبن تطفو فوق صهد الشمس، على أجنحة ملايين من أسراب الذباب الطنّان، كان سيد دعبس قد بدأ رحلة العودة من موتته الصغرى عكس ملايين من البشر العاديين الذين بدأوا تواً هجعة الظهيرة، فتح عينيه نصف فتحة وحرك شاربه يميناً ويساراً فطارت ذبابة كانت قد نامت بداخله، وتسربت أشعة الشمس من خلال فتحات الأبواب والشبابيك الوهمية ومن خلال سقف الحجرة، كانت حزم الضوء تهاجم الغرفة الوحيدة بضراوة، تثاءب وهو يزيح حزم الضوء الباهر بكف يده من فوق وجهه، وقام نصف قومة منزوياً فى ركن ظليل لا تغزوه الشمس، وتلفّت حوله بحثاً عن أحد من أولاده فلم يجد، لكنه كان يعرف أين يجدهم، كانت زوجته قد خرجت منذ أسلم نفسه

للنوم لاستلام ورديتها المسائية بأحد مصانع الملابس الجاهزة ولن تعود قبل ساعتين، أما الأولاد الذكور وهم ثلاثة، فإنهم بمجرد أن يسلم نفسه للنوم، ينطلقون للعب الكرة الشراب فى الحارة،بينما بناته الست، سمع صياحهن فى حوش المنزل، نادى على إحداهن فجاءت الكبرى وأعدت له إفطاراً مكوناً من قطعة جبن قريش مغموسة فى الزيت، وطبقاً من البلح الأمهات ورغيفين، تلك كانت أكلته المحببة والتى يعيش عليها طوال النهار، انتهى سريعاً وأشعل سيجارة وأخذ رشفة عميقة من كوب الشاى الثقيل المغلى. كان يحتاج إلى ساعة على الأقل ليفيق من نوم وش الصبح الذى يصيب عادة بالوخم والصداع ووجع الجسم، وتنبه أن لديه موعداً فى المساء مع أعضاء الفرقة المسرحية الجديدة، كان بيت الثقافة قد كلفَه بإنشاء فرقة مسرحية من الشباب الجدد، على أن يقوم هو شخصياً بتدريبهم على قواعد التمثيل، وعليه يقع عبء تقديم عرض محلى سوف يختاره بنفسه، يراعى فيه أن يكون سهلاً بسيطاً وجذاباً فى نفس الوقت، حتى يستطيع جذب أكبر عدد من المشاهدين فى بولاق الدكرور والقرى والأحياء المجاورة لها، وفى اعتباره أن معظم مَنْ سوف يأتون لا يعرفون ما هو الفارق بين المسرح وحلبة السيرك التى كانوا يشاهدونها فى الساحات الشعبية صيفاً.

كان أمامه وقت كاف لمكافحة الذباب والحر اللافح الذى

جعل العرق يشق له مجرى فوق جسده بدءاً من جبينه مروراً برقبته فصدره حتى سرواله، أيضاً في المصيبة التي حلّت عليه منذ أسبوع، وبينما كان ذاهباً إلى عمله بإحدى شركات المياه الغازية اكتشف أن الباب مغلق، وأن الشركة تم بيعها لإحدى الجهات الاستثمارية، وتم الاستغناء عن جميع العمال دون انذار مسبق، وسوف تباع أسهمهم بمعرفة الشركة بواقع: ثلاثة آلاف جنيه مصري فقط لاغير للسهم الواحد. وفي لحظة، حسب سيد أن له أربعة أسهم، ثمن السهم ثلاثة آلاف، نضرب ثلاثة في أربعة تعطينا اثنى عشر الف جنيه، وعليه تدبير حاله بهذا المبلغ الذي رغم ضآلته، لم يمتلكه طوال حياته، هل يضعه في أحد البنوك الاستثمارية، ويقبض أرباحه أول كل شهر؟، أم أنه يقوم بتوظيفهم في السوق في أي مشروع؟ وأخيراً استقر رأيه على إكمال بناء البيت الذي لم يكن حتى ذلك الوقت سوى حجرة واحدة مُعرشّة بالبوص وعروق الخشب، يرمي المسلح ويقوم بتبليط الشقة التي لابد وأن يكون لها أبواب وشبابيك عمولة وحمام نظيف وإضاءة جيدة بالنيون مثل بقية خلق الله. أما أولاده فلهم رب اسمه الكريم، كما أن عليه البحث عن عمل بجانب عمل زوجته، ولكن أي عمل؟

لم يكن سيد دعبس إنساناً عادياً حتى يستطيع أن يتواءم مع أي عمل، فمَنْ كان مثله يمتلك مزاج فنان مرهف

الحس له تطلعات وطموحات، وله خبرته العريضة بفن المسرح ويسمع عن ستانسلافسكى وانتونان أرتو وبرخت، ويعرف ماذا يعنى كسر حاجز الإيهام ومسرح القسوة والكوميديا المرتجلة والتراجيديا الاغريقية، سوف يفشل بالتأكيد إن هو عمل بعيداً عن مجاله الحيوى، حتى فى شركة المياه الغازية، لم يكن يعمل إلا فى المسرح، ويفخر بأنه أول من فكر فى تأسيس مسرح بالشركة، بعد أن أقنع مجلس الإدارة بأن المسرح لا يقل أهمية عن أى نشاط حيوى آخر، مُكرّس لخدمة العمال: مثل دورات المياه وساعة غداء الظهيرة، وكون فريقاً رائعاً من زملائه ممن لهم ميول عدائية إجرامية تجاه الآخرين، بنظرته الثاقبة قرر تفريغ محتواهم الاجرامى فى عمل مسرحى هادف، تولى تدريبهم بنفسه، وصار مسئولاً عنهم وعن المسرح، كان هذا هو عمله الوحيد، ولم تكن له مواعيد حضور وانصراف مثل بقية موظفى الشركة، كان له وضعه الخاص، كان هو المؤلف والمخرج والممثل، وقد إستطاع اظهار عدة عروض قصيرة إلى النور، كانت أشبه باسكتشات منها إلى عروض مسرحية حقيقية، وكان دائماً يرجع ذلك لعدم توفر الامكانيات التى يستطيع من خلالها عمل نهضة مسرحية جادة، إلا أنه مع ذلك كان يجد تصفيقاً حاراً من جمهوره الذى لم يكن يتعدى بأية حال موظفى الشركة وعائلاتهم.

كان دائماً يتوق إلى عمل مسرحي حقيقي يطلق فيه طاقاته كممثل ويثبت لنفسه أولاً ولزوجته وأولاده ولكل من حوله أنه ممثل موهوب، وما عاش حتى تلك اللحظة إلا لهذا السبب ولأجله، ذلك أنه خرج من صلب أبيه ممثلاً بفطرته، لم يتلق تعليماً منتظماً، ولم يدرس مسرحاً، ولا يفقه شيئاً في تلك المصطلحات المسرحية المعقدة، والتي كان يتشدق بها كل من تعامل معهم، كانوا يستعرضون ثقافتهم أمامه، كان الواحد منهم يقف هكذا واضعاً يديه في وسطه قائلاً: أصل الميزانسين مش عاجبني. أو يقول: الفينالة دي محتاجة تغيير. وأشياء من هذا القبيل، ولم يكن رد فعله يتعدى هز كتفيه ومغمغماً بضع كلمات غير مفهومة في محاولة منه لإيجاد صيغة ما تدل على فهمه لما يقول، إلا أنه كان يشعر في قرارة نفسه أنه يفهم كل ما له علاقة بالمسرح فهماً فطرياً، لا يحتاج إلى التشدق بمثل هذه المصطلحات أو الفلسفات الجوفاء، وهل يحتاج الماء أو الهواء إلى أية تفاسير؟ وأنه أكثر موهبة من كل هؤلاء، فقط لو أعطي فرصة كاملة ولو مرة واحدة في حياته، فرصة حقيقية يخرج فيها كل طاقاته الكامنة والمختزنة منذ آلاف السنين. كان يعيش على ضربة حظ قد تأتي في أية لحظة، وكان يهيىء نفسه دوماً لمثل تلك اللحظة التي ربما لا تجيء سوى مرة واحدة، مثل ليلة القدر التي حلم طوال حياته الطفولية

باختيارها له ولابد من اغتنام الفرصة وإلا فعليه العوض ويارك الله فيما رزق.

هكذا كان يحدِّث نفسه فى تلك الظهيرة الموحشة بشمسها الفضائحية، وفى إنتظار المساء حيث يبدأ يومه الفعلى، أخذ يتأمل أجزاءً من حياته التى ولّت دون أن يشعر، لم تكن المرة الأولى التى يستحضر فيها أيامه الهاربة، لكنه وللحق، لم يكن يستحضرها من أجل البكاء على ما فات فى محاولة لجلد الذات، لا، كانت فقط لحظات تأمل حزين، لحظات كان يطفو فيها مع الزمن فى كل تجلياته: ماضيه وحاضره ومستقبله، وفى كل مرة تنتهى تأملاته وهو يرى نفسه واقفاً على خشبة المسرح، ليس أى مسرح، إنما أكبر مسارح الدنيا، وأمام جمهور كونى يؤدى دور الأدوار كلها، دور عمره، متقمصاً أرواح أعظم ممثلى الأرض ومحلقاً فى سماوات وذرا غير مسبوقة من قبل، متفوقاً على أرواح أساتذته، وحتى على نفسه أيضاً. لحظتها، يكاد يسمع تصفيق الجمهور يصم أذنيه فتتحرك كل حتة فى جسده وكأنه يؤدى دوره بالفعل أو هو على وشك، واحنى سيد دعبس رأسه لجمهوره الوهمى، وتلفت حوله يميناً ويساراً، وحمد الله أنه وحده، كثيراً ما يراه أولاده فى هذه الأوضاع، رأسه ينحنى فجأة محيياً جمهوره الداخلى، إشارة مفاجئة من يده تستكمل حواراً جوانياً لا

ينقطع، جملة زاعقة فى لحظة ذروة داخلية، وكثيراً ما كانوا يضحكون غير فاهمين أن ما يدور بينه وبين نفسه أعظم نص فى العالم، نص استغرق فى إعداده عمره كله، نص هو بطله ومنتجه ومؤلفه ومخرجه والمتفرج الوحيد عليه، إنه أحد نصوصه السرية التى دأب على تأليفها فى الآونة الأخيرة.

لكل وقت نصه، لكل حادثة تقع، رائحة يشمها، أصواتاً يسمعها، إذا تشاجر مع رئيسه فى العمل ألف نصاً يوبخه فيه ويقتص منه، ولو انهزم فى الدومينو أو الطاولة ألف نصاً يهزم فيه كل منافسيه، وعلى مشهد من جمع غفير حتى يكون النصر كاملاً واستعراضياً، لا، لم تكن الحياة سهلة، وأشاح بيده منفعلاً، لم تكن سهلة على الاطلاق، كانت نضالاً مستمراً من أجل ألا يسقط فى التفاهة، ألا ينسحق تحت وطأة الفقر والجهل والمرض، ثالوثه الألد، ومزيد من الحقد على عالم يزداد ميتافيزيقية تجاه الحياة نفسها. لكى لا تشعر بالدونية تجاه الآخرين، أن تكون سيد نفسك، تمتلك إرادتك وحلمك الخـــاص والذى لا تراجع عنه أو استسلام مهما كان الثمن. وابتسم وهو يمشط لحيته بأصابعه، ثم تحسّس شعر رأسه الأبيض المصفر بذؤاباته الطويلة المجعدة، كثيراً ما ينخدع الآخرون بمظهره الخارجى، بتلك اللحية البيضاء المرسلة فوق رقبته، تكاد تخفيها، وشعر رأسه وحواجبه وشاربه، لقد دب البياض فجأة فى كل

شعره، رغم أنه لم يتعد الخمسين بعد، مظهره العام يعطى انطباعاً بأنك أمام بائع سقط، خاصة حين يرتدى جلبابه الأبيض الوحيد الملىء بالثقوب من رماد السجائر المشتعل، لكن خلف كل ذلك يوجد إنسان حقيقى مثقف ثقافة حقيقية ليست تنتمى إلى ثقافة الكتب، بل تلك الثقافة التحتية التى يكتسبها أبناء الشوارع والحوارى والنائمون على الطوى، وكثيراً ما استدعى لحظة بعينها أحبها وعدها انتصاراً وتأكيداً لهويته، كان يجلس على أحد المقاهى الشهيرة فى بولاق الدكرور والتى تمتلىء بروادها من كل الطوائف مساء، وجاءت جلسته بالقرب من بعض الشباب الصغار ممن كانوا يهوون المسرح، وكان حديثهم يدور الآن حول المسرح، وصعوبة الحصول على الدور المناسب لكل منهم، فاقترب بكرسيه حتى يستطيع سماع ما يدور من حديث، وتساءل أحدهم عن كتاب يحتاجه حول مسرح الشارع أو المسرح المرتجل لا يذكر بالضبط، واحتدمت المناقشة دون حسم، لحظتها هتف: انتونان أرتو. وساد الصمت فجأة، وأخذوا يتلفتون بحثاً عن مصدر الصوت وتطلع إليه أحدهم متسائلاً: هل قلت شيئاً؟ وابتسم سيد تلك الابتسامة التى اشتهر بها والتى لا توحى بشىء، وأومأ برأسه إيجاباً نعم إنه انتونان أرتو، صاحب هذا المصطلح. فى بادىء الأمر ابتسموا فى سخرية لم تخف على سيد الذى

يلمحها وهى طائرة، لكن الصمت أصبح تاماً حين اندس بينهم، وأخذ يُحدِّثهم من خلال تجاربه الذاتية عن مسرح آخر لم يقرأوا عنه فى الكتب، وعلى مدى أربع ساعات كان هو المتحدث الوحيد، ولدهشته، فقد كانت أفكاره مرتبة ومنظمة، ويعرف موضوعه الذى يتحدث عنه فتجلى كما لم يتجل من قبل، وضبط نفسه أكثر من مرة متلبساً بنطق بعض المصطلحات، التى كان يكره سماعها من الآخرين. ومنذ تلك اللحظة انضموا إليه وصار هو معلمهم، وشكّل منهم النواة الأولى لمسرح بيت الثقافة الذى أزف موعد الذهاب إليه الآن.

غابت الشمس بلفح نارها، وهبت نسمة مغربية طرية انعشته وهو يرتدى جلابيته البيضاء الوحيدة، ومشّط شعر رأسه ولحيته وخرج إلى حيث بيت الثقافة، كانوا فى انتظاره فجلس بينهم يعدون النص المسرحى الجديد، والذى سوف يعرض فى رمضان القادم وقد أصبح على الأبواب، كان الوقت ضيقاً، لذا فقد استغرقت الجلسة عدة ساعات ما بين قراءة وحذف وإضافة، وسوف يكون عليهم ابتداء من الغد عمل بروفة حركة، ألقى إليهم تعليماته الأخيرة، ثم انصرفوا جميعاً إلى المقهى حيث يجلسون حتى الصباح، قرب آذان الفجر، أحس سيد ببعض التعب فاستأذن وانصرف وحيداً سوى من عصاه التى يتوكأ عليها ويهش الكلاب الضالة، لم

تكن هناك ميكروباصات تقله إلى منزله، فقرر أن يمشى رغم طول المسافة، كان الجو صيفياً رائقاً، وأخذ يتنفس هواء الفجر المنعش، وبدأ يدندن مطلعاً من أغنية لعبد الوهاب وآخر لفيروز، وشعر الآن فقط بلحظة سلام حقيقية مع نفسه، واجتاحه سكون مفاجىء فتساوى كل شىء عنده: الغنى والفقر، الحياة والموت، أن تعيش ملكاً أو أن تعيش غفيراً أو عتّالاً، أن تكون ممثلاً أو متفرجاً، وأضحت المعادلة سهلة وأبسط مما كان يتصور: كل شىء يساوى أى شىء. وأمضّه الجوع فتلّفت حوله، كان الشارع مقفراً ومظلماً، ولدهشته وجد امرأة عجوزاً ملمومة فى نفسها بركن معتم فوق الرصيف، وأمامها وضعت مشنة بلح أمهات. كان وجودها فى تلك اللحظة شاذاً ومريباً، فلمن تبيع فى تلك الساعة؟ تقدم منها ورمى عليها السلام: العواف يا خالة. كانت ترتدى طرحة سوداء اسبغتها على كل جسدها، لا شىء يبدو منها سوى الهيكل الخارجى لجسد يحمل تفاسير عدة. نص كيلو بلح لو سمحت. وجاءه صوتها قوياً ويقظا عكس ما توقع: خد يا ولدى بيدك ما قسم لك. وغرف سيد بكف يده ما قدر أنه يعادل نصف كيلو، ووضع النقود بجانبها ومضى. كان يمر أمام سور جنينة باسيلى حين وضع أول بلحة فى فمه، وأحس حلاوتها تمتصها خلاياه ببطء، وأخرج النواة وطوحّها تحت السور مباشرة، وليته ما فعل، وكانت أصابعه

تحمل البلحة الثانية إلى فمه فتوقفت فى منتصف المسافة، انشقت الأرض تحت السور مباشرة وخرج سرسوب دخان أخذ يتصاعد بلا انقطاع حتى حجب السماء، ثم أخذ يتضاءل مرة أخرى، وأخيراً إنجلى عن شخص وجده سيد دعبس واقفاً أمامه، ولم يصدّق سيد نفسه فهز رأسه وابتسم ومازالت البلحة بين أصابعه وبالقرب من شفتيه، كان طويلاً جداً ونحيفاً جداً ووسيماً جداً، ومد يده أمسك سيد من ياقة جلابيته وتحدث بهدوء: سوف لا أنفعل حتى لا أحرقك بنار غضبى وسوف أكون هادئاً حتى آخذ حقى منك. وكما لو كان الأمر به خدعة ما أغضبت سيد فقد تحدث إليه غاضبا: حقك من إيه يا أخينا؟ ثم مَنْ أنت؟ مساء الفل أو صباح الخير ماتفرقش. وبنفس الروح الهادئة تحدث الآخر: من الواضح أنك شخص غير مسئول ولا تُقدِّر الموقف الصعب اللى أنت فيه. ووضع سيد البلحة فى فمه ورمى النواة على الأرض وقال وهو يمضغ: موقف ايه بالضبط ما تجيب من الآخر وتقول أيه الحكاية وتخلصنى. طيب، سوف أسايرك فى لامبالاتك، أنت رميت النواية فجاءت فى ولدى وقتلته فى الحال، وسوف أقتلك الآن مثلما قتلت ولدى ووحيدى. ولم يتمالك سيد نفسه فانتابته كريزة ضحك متواصل حتى أنه شرق ودمعت عيناه، وتساقط بعض البلح من القرطاس. وأخيراً هدأ ونظر إليه: أنا قتلت ولدك؟ وبماذا؟ نواة بلح؟

إنت مين يا عمنا قلت لى؟

أنا سمسمائيل بن حزازيل ملك ملوك الجن الأحمر وحارس هذا المكان من خمسة آلاف سنة، ها، ارتحت؟

جن أحمر ولاّ أزرق وأنا مالى، ثم أنك جن على نفسك ولا مؤاخذة، وبعدين الظاهر أنك متْقل العيار حبتين، ولاّ يمكن يكون الصنف مغشوش، وعلى أية حال نفضها سيرة بقى، تاكل بلح؟ ومد سيد يده بقرطاس البلح ناحيته، وبدا سمسمائيل منفعلاً فضرب قرطاس البلح بيده فأطاره من يد سيد وتناثر على الأرض. أقول لك ملك ملوك الجن الأحمر تقول لى تاكل بلح، أما ابن آدم معندكش دم صحيح. وغضب سيد للبلح الواقع على الأرض، وشوّح بيده فى وجهه: يا عم الحاج صلى على النبى جن إيه وهباب إيه، الناس طلعت القمر ودلدلت رجليها وأنت جاى تقول لى جن، إنت عارف فاضل كام يوم وينتهى القرن العشرين، صلى على اللى يشفع فيك.

وأخذ الرجل يتأمل سيد دعبس صامتاً ومحتاراً: واضح أنك مش مصدق أنى عفريت من الجن بحق وحقيق، طيب، ما الذى أفعله لأجعلك تصدق، احلف لك؟ قالوا للحرامى احلف، يا عم سيبنى أروح لعيالى، الفجر قرب يشقشق الله لا يسيئك. لن أتركك قبل أن تصدق، القضية الآن تمس كرامتى كملك لأبناء جنسى، شوف، وبدفعة من قدميه طار

العفريت فى الهواء، وأخذ يحوم فوق رأس سيد دعبس ثم نزل وأخذ يتحول أمام عينيه، فتحول إلى ثعبان، فحنش، فأفعى، ثم إلى أسد، فليث، فسبع، فغضنفر فلبوءة ثم إلى نسر، فبقرة، فحلوف، وإلى عفريت بألف وجه ووجه تحول، ثم ارتد أخيراً إلى صورته التى كان عليها، ها.. صدقت؟ وكان سيد قد بدأ يصدق بالفعل، ولأول مرة داهمه خوف مفاجىء، فأخذ يرتجف وتلعثم لسانه. وما الذى تريده يا سيدى بالضبط؟ أن أقتلك مثلما قتلت ولدى فاختر لك ميتة فهذا لابد منه.

إذا كان لابد من الموت فلتمت رجلا كما عشت، قال سيد لنفسه وتقدم من العفريت بعد أن نطق الشهادتين ووقف أمامه واغمض عينيه وبهدوء قال: ها أنا ذا أمامك إفعل بى ما تشاء، أنا لا أخاف الموت وما قدّره الله سوف يكون، هل تحسب أنك سوف تموت هكذا بالساهل؟ لابد أولا أن أخيِّرك فى الموتة التى تحب تموتها فهذا حقك، هل أشطرك إلى نصفين؟ أم أذبحك من الوريد إلى الوريد؟ أم تراك تفضل الخنق؟ أم الغرق؟ أم الحرق؟ ولا السم أحسن بالنسبة لك؟ هيا قل لى فليس عندى وقت أضيعه معك.

إذا كان الأمر كذلك فإنى أضع الأمر بين يديك وأجعلك تختار أنت الوسيلة التى تريحك وتريحنى، باين عليك عفريت شهم وابن حلال وهو ما يجعلنى أطلب من جنابك

معروفاً لن أنساه لك طوال حياتى القصيرة. قال وتطلع إلى العفريت الذى نفذ صبره فرد: قل وخلصنى. أمهلنى أسبوعاً واحداً فقط أودّع فيه أهلى وعيالى وصحبى وأنتهى من بعض أعمالى، وبعد ذلك إفعل بى ما تشاء.

يا حلاوتك! وما الذى يضمن لى عودتك فى موعدك؟

إليك ضمانة بأننى سوف أعود إليك، ثم ضرب سيد يده فى سيالة الجلابية، وأخرج بطاقته العائلية وقدّمها للعفريت الذى أخذ يتأمل الصورة والكتابة وتساءل: ما هذا؟ إنها بطاقتى، وهى التى تتحكم فى حياتنا على الأرض، بدونها لا نساوى شيئاً، ثم أن بها اسمى وعنوانى ورقمى القومى وتستطيع عن طريقها أن تجدنى حتى لو كنت فى بطن أمى. ولدهشته، فقد هز العفريت رأسه ودس البطاقة فى جيبه، وأمهله أسبوعاً.

وفى هذا الأسبوع، أتم سيد دعبس بناء البيت، وتم عرض المسرحية التى كان قد بدأها، وتحقق حلمه بالوقوف فوق أكبر مسارح الدنيا، وكما قال النقاد فإن أداءه فاق كل أساتذته، وتم تدشينه عميداً لحركة المسرح الجديد، وبمعجزة حقيقية شفى تماماً من ثلاث جلطات قديمة بالقلب، وانسداد فى الشريان التاجى ووريد تالف لم يكن منه رجاء، وعفى عن أعدائه القدامى، وسهر ليلة لا تنسى مع أصدقاء الطفولة والمقهى فى آن واحد، وتذكر أشياء كان يتمنى أن

يتمها فأتمها ، وفى الليلة الأخيرة امتد حبل الوصال بينه وبين زوجته، وحين صحت من النوم صباحاً لم تجده نائماً بجوارها ، فأخذت تبحث عنه، لكن سيد دعبس كان قد اختفى.

* * *



المخطوط



«السندباد الجوى» - لتجارة الكتب القديمة.

بيع - شراء - استبدال

كان هذا العنوان مكتوباً بالخط الثّلث المشكّل على اليافطة الحديثة المعمولة من الزجاج المعشّق، والمضاءة من الداخل بالنيون المشع باللون الأبيض، والذى حين يضاء، يجعل اليافطة "كرنفالاً" من الألوان المتداخلة فى بعضها البعض. وكانت اليافطة المعلقة فى واجهة المكتبة صممت على أحدث تكنولوجيا نهاية القرن العشرين وبداية العد التنازلى لقدوم قرن آخر جديد يوشك أن يبدأ بعد أيام تعد على شاشات عملاقة فى كل عواصم العالم، إلاّ أنها، وبعبقرية صانعها، أراد لها أن توحى بالعتاقة والقدم بطريقة ما تتماشى تماماً مع تلك الكتب القديمة المرصوصة بعناية فوق الأرفف الطولية والعرضية والتى تمتلىء بها المكتبة من الداخل، كافة أنواع الكتب فى شتى العلوم بلغة واحدة هى العربية: الطب، السحر، علوم السيمياء، الفلك، الجغرافيا، علم الكلام، الفلسفة، علوم القرآن، الهرطقة، الأحاديث النبوية، الخط العربى، خرائط الأرض والبحر، وأساطير الأولين.

كانت المجلدات تحتل جزءاً كبيراً من الأرفف، بألوانها

القديمة الباهتة ومجلدة بجلد الغزلان المعرق، أما باقى الكتب، فكانت تنبعث منها رائحة الورق الأصفر العتيق، وهى رائحة كانت محببة له، حتى أنه كان يفتح بعض الكتب خصيصاً ليشم رائحة الأزمنة الغابرة، وأطلق عليها "برفان الزمن" وتمنى أن يأتى اليوم الذى تعبأ فى زجاجات وتباع مثل أى روائح أخرى، لقد أمضى عمره كله وسط تلك الرائحة، فى بيته، وفى حجرته الصغيرة، وها هى تحاصره فى المكتبة وتملأ خياشيمه فتصيبه بنشوة لا تزول، المكتبة، حلم حياته الذى تحقق أخيراً، أن يكون صاحب مكتبة لبيع وشراء الكتب القديمة. أن يصبح وراقاً وكتبياً مثل شيوخه الذين تعلم على يديهم بدرب الجماميز والصنادقية والأزهر وشارع بورسعيد والجمالية، وسوف يكون مثلهم تماماً سمحاً إذا باع، وسمحاً إذا اشترى، إذا جاءه أحد الزبن، سيقول له هذا الكتاب وهبته كذا، ولن يقول ثمنه كذا، هكذا كانت لغتهم مع الكتب، يرضون بالقليل، كلمة "وهبة" لا تطلق إلاّ مقرونة بالمصحف عند بيعه أو شراءه، لكنه سوف يقرنها بجميع الكتب فكل الكتب مقدسة، وكل الكتب هى خلاصة الفكر الإنسانى، هى حكمة ممثلى الله على الأرض، وما ينفع الناس منها يمكث فى الأرض.

بالأمس انتهى من ترتيب كل شىء: الكتب، الأرفف، الإضاءة، اليافطة التى اختار اسمها بنفسه وأراد أن تكون

غريبة ومختلفة، يعرف السندباد البحري والبرى، قصتهما فى ألف ليلة وليلة معروفة، عنده منها ستة نسخ فى طبعات نادرة: طبعة مدينة برسلاو بهولنده وهى النسخة الأتم فى اثنى عشر مجلداً، طبعة مدينة كلكتا بالهند وهى الأفضل فى ثمانية مجلدات، وطبعة بولاق بتحقيق الشيخ قطة العدوى رحمه الله، طبعة مكتبة ومطبعة محمد على صبيح فى أربعة مجلدات، كانت مكتبته معروفة بميدان الحسين رضى الله عنه، وكان من شيوخ الوراقين، لكن بضاعته بارت وأفل مع الآفلين - اللهم احفظنا - طبعة مدينة بغداد، وهى مأخوذة عن طبعة برسلاو، وأخيراً الطبعة الفارسية.

كان عنوان المكتبة "السندباد الجوى" له دلالته، فالعرب القدامى عرفوا البحر والبر، أما الجو، فأقصى ما تخيلوه أن يركب أحدهم بساطاً طائراً، وهو حين شرح منطقه للرسام، إبتسم، وشرع يرسم "سندباد" يركب طائرة نفاثة، وحين فرغ الرسام، أخذ يتأمل اليافطة فاعجبته، وهز رأسه راضياً عن نفسه، نعم، هكذا يجب أن يكون سندباد نهاية القرن. وأخيراً جلس أمام دكانه واضعاً ساقاً فوق أخرى، وجاءه صبى المقهى بشيشة وقهوته السادة، وبين لحظة وأخرى، كان ينظر من خلف كتفه إلى رفوف الكتب فيحس راحة، ويهز ساقه رضاء وسروراً.

منذ أن افتتح المكتبة فى الصباح دون مراسم، قرأ آية

الكرسى والمعوذتين فى كفه ومسحهما فى وجهه، هذه الآيات سرها باتع، يعرف هذا جيداً، والشمس غابت الآن دون أن يأتى إلى المكتبة زبون واحد، المارة كانوا يتفرجون من بعيد لبعيد تعلوا وجوههم الدهشة، مكتبة فاخرة فى حى شعبى فقير! لكنهم ما كانوا يسمحون لأنفسهم بالاقتراب من الأرفف أو الكتب رغم ابتسامته الموحية بالثقة والمشجعة. كان يتمنى بصدق أن يأتوا، يقتربون من الكتب، يقلبونها ويفرون صفحاتها، يشمون رائحتها، لا يهم بعد ذلك أن يشتروها، بل كان على أتم استعداد لإعطاءها لهم لو طلبوها. أمتع شىء فى الدنيا أن تقترب من كتاب قديم، تغبر به أصابعك وأنت تفر صفحاته، بينما تتشمم رائحته القديمة الآتية من أزمان سحيقة، تلك هى المتعة الحقيقية التى لا يعرفها أغلب الناس.

أضاء الأنوار فغمر ضوء النيون الأرفف والكتب فبدت أفضل رؤية العناوين. وبدت ألوانها أزهى مما كانت عليه فى الصباح، وفكر أن الوقت لم يتسع لفرز جميع الكتب، إكتفى فقط بالعناوين ذات الجاذبية للزبن، أما بقيتها، فمازالت فى الصناديق لم تمس، وطالما لا توجد حركة بيع وشراء، ففى وسعه إخراجها فى أى وقت، وربما استطاع السهر قليلاً، فالوقت صيفاً، والهواء هنا يختلف عن هواء البيوت الراكد السخن بفعل إمتصاص المسلح لشمس الظهيرة الحامية،

إقترب الليل من منتصفه، وخفت حركة مرور الناس فى الشارع حتى كادت أن تتلاشى، وبدأت المحلات المجاورة تطفىء أنوارها وتغلق أبوابها، وبدا له أن لا أحد غيره فى الشارع الآن فاجتاحته حالة من السكون المحبب إلى نفسه، والتفت إلى الوراء كعادته منذ الصباح متفقداً الأرفف والكتب، وحين ارتد بصره رأى شيئاً عجيباً بعض الشىء، كان هناك رجل واقف أمامه، وكان قريباً جداً منه لدرجة أزعجته فرجع بكرسيه قليلاً، كان الشارع مقفراً، فمن أين أتى فجأة؟ ولوهلة، أحس باضطراب وقلق، وأصبح الجو مشحوناً بقوة حيوية هائلة، وأحس كمن وقع بين قطبى مغناطيس له قوة خارقة، ورفع بصره إليه، كان طويلاً مفرط الطول ونحيفاً جداً، شعر رأسه أقرب إلى الرمادى، وعيونه واسعة بلا أجفان ولا لون لها، ربما كان الأقرب إلى الصحة أن عيونه فى تلك اللحظة كانت تشع كل الألوان، أيضاً ملابسه بدت غريبة إلى حد ما، كانت أقرب إلى ملابس أحد قراصنة العصور الوسطى، وأخيراً جاء صوته وكأنه آت من جب عميق ليكمل الصورة: مساء الخير يا عم سيد. ثم أخذ يتأمل اليافطة والأرفف والكتب من مكانه دون أن يقترب وارتد إليه ببصره مرة أخرى وابتسم. ألا تعرفنى؟ مبروك عليك المكتبة. تنحنح وابتلع ريقه ولم يدر بماذا يجيبه فقال: والله يا استاذ لا تؤاخذنى، أتشرف بمعرفة حضرتك. وأحس

فى تلك اللحظة بعيون الرجل تخترقه وتحاصره. أنا أبحث عن مخطوط أعرف أنه عندك اسمه "قمر الأقمار".

لا يذكر سيد أنه سمع أو رأى مخطوطاً بهذا الاسم والشكل، وتعجب من ثقة الرجل، فهو على يقين مما يبحث عنه، بل والأغرب أنه يعرف اسمه رغم أنه لم يره من قبل. والله يا أستاذ لم أسمع بهذا الاسم من قبل، ثم أننى لا أعمل بالمخطوطات، كل ما عندى بعض الكتب القديمة، وعلى أية حال أدخل يا بنى ودوّر على الرفوف براحتك.

لا، ليس موجوداً على الأرفف، ومع ذلك أنا أعرف أنه عندك وسوف أملكه. وتذكّر سيد أن لديه بعض الصناديق التى لم تفتح بعد، وربما كان الكتاب بداخل أحدها فقال: دعنى أبحث عنه فربما كان مختفياً هنا أو هناك، وبينما يلتفت خلفه باحثاً على الأرفف بعينيه، كان الرجل قد اختفى فجأة كما ظهر.

ضرب سيد كفاً بكف، وسرت رعشة ببدنه فقام وأطفأ الأنوار وأغلق باب المحل وهرول إلى بيته دون أن يتوصل إلى تفسير لما حدث.

ولأن ذاكرته بدأت تخونه فى الآونة الأخيرة، فقد قام فى الصباح وقد نسى كل شىء، ففتح مكتبته وجلس على بابها، ولابد أنه إنشغل بشىء ما حتى أنه لم يشعر بذلك الشخص الواقف أمامه يكاد يلتصق به، وسرعان ما لاحظ

تلك الهيئة الغريبة التى بدا عليها بملابسه المضحكة ذات الألوان المتنافرة والتى استبعد أن يكون صاحبها ممن ينتمون إلى الثقافة الرفيعة. صباح الخير يا عم سيد. كان صوته أيضاً غريباً، وشعر بتوتر حاد شمل كل أطرافه، وقلق غامض سيطر عليه، وعيون تشع خطراً تخترقه، كانت نفس العيون التى قابلها بالأمس تذكرها الآن. وفى جزء من الثانية أدرك ما جاء من أجله هذا الرجل والذى لم تكن ملامحه هى نفس ملامح الآخر، إنما نفس العيون ونبر الصوت، وقرر إنكار وجود المخطوط عنده، لكنه لم يمهله: أنا أعلم أنه عندك فلا داعى للانكار، سأمر عليك فى وقت آخر. وابتسم سيد غير مصدِّق لخرافاته وهو يرى بنى آدم يتبخَّر أمامه وكأنه فص ملح وذاب، وحتى يقطع الشك باليقين، دخل المخزن الملحق بالمكتبة، وأخرج صناديق الكتب، وأخذ يفتح الواحد تلو الآخر قارئاً العناوين، وكلما أوغل فى فتح الصناديق دون العثور على شيء، إزداد يقينه بأن المسألة ما هى إلا مزحة سخيفة من أحد معارفه يعرفه جيداً، ويعرف ولعه بكائنات ما وراء الطبيعة، وأنه ما شك فى وجودها لحظة، وأنه كثيراً ما تخيل فى أحلام يقظته، عفريتاً يخرج له من ابريق نحاس صدىء، أو مارداً يطير به حتى يحط به على جبال قاف، أو جنيا يأخذه إلى بلاد واق الواق، حتى أصبح ممسوساً بكائناته الخرافية يعيش بينها،

ويحلم بها، أكثر من حياته مع زوجته وأولاده، وأخذ يفض آخر صندوق، وفى المنتصف تماماً، كان يقبع ذلك المخطوط بجلدته الحمراء الباهتة، أمسكه بأصابعه وفتحه، وداهمته رائحة غريبة، رائحة لم يشمها من قبل، كريهة ومُنفِّرة كادت تخنقه، وبلغة لم يعرفها أو رآها قبل الآن، أخذ المخطوط يتشكّل أمامه، وأخذته رعدة، وتكهّرب الهواء من حوله، كان المخطوط يشع خطراً فأغلقه ووضعه على أحد الرفوف الأمامية من المكتبة بحيث يصبح فى متناول رؤيته، جلس أمام باب المكتبة وعيناه على المخطوط لا تفارقانه، لم يكن كبير الحجم، بل يشبه كراساً عادياً، وكانت رائحة المخطوط تملأ الهواء، وفى جزء من الثانية خيل لسيد أنه الآن فقط عرف كل شىء، ورأى كل شىء، رأى ما فوق السماء، وما تحت الأرض وعالم الظلام والجبال والبحار وما تقوله الطيور فى السماء والسمك فى البحار، ورباعيات الأرجل فى الجبال، ودورة الأفلاك فى كامل بهائها، وتعاقب الأزمنة ومصائر البشر المهدَّدة بالفناء، وللحظة خاطفة أدرك أنه هو شخصياً سوف يموت فى يوم ما ليس ببعيد، وأنه لا جدوى من أى شىء طالما المصير المحتوم واقع لا محالة. وأخيراً وصل فى تهاويمه إلى أقصاها. لحظتها، إلتفت إلى المخطوط فلم يجد له أثراً.

* * *

هوامش وتعليقات حول
كتاب
نزهة المشتاق
إلى
فضائل بولاق

النسخة التى بين يدّى الآن، والتى سوف تطبع فى السلسلة عدد رقم ستمائة وخمس وأربعون، والمؤرخ فى الثانى والثلاثين من يناير عام ألفين وعشرة، لا تختلف كثيراً عن تلك التى أصدرتها مطبعة بولاق عام ألف وسبعمائة وستة، والتى تم اكتشافها على يدى المستشرق البريطانى ريتشارد بيرتون بعد أن أتم ترجمتها وطباعتها فى العام نفسه بالانجليزية. كانت نسخة بيرتون مليئة بالحواشى والتعليقات والهوامش، مما ضاعف من حجمها حين طبعت بالعربية، لكنها النسخة الوحيدة التى أنقذت من كتب بيرتون بعد أن أحرقت زوجته ألف ليلة وليلة والروض العاطر ورجوع الشيخ إلى صباه وبرجان وحباحب، الكتاب الذى لم تظهر منه نسخة واحدة حتى الآن، وربما قد فقد إلى الأبد، ومن المفارقات أن جملة عابرة انقذت الكتاب من محرقة زوجة بيرتون، ذلك أن جملة كانت قد كتبت على صفحة الغلاف الأولى تقول: "متلفى تالف بعدى لا محالة" قرأتها فخافت على نفسها إن هى احرقته، وربما ظنت أنه أحد كتب السحر التى يزخر بها الشرق والذى فتن به زوجها.

على أن نسخة الذخائر هى الأتم، رغم أنها الأقل حجماً، ويرجع تاريخ نسخها إلى عام ثلاثمئة هجرية، كتبت فى

عهد الخليفة المقتدر بالله على يد ناسخها محمد بن عيسى الشهير بابن عبد الجواد، كتبت بخط النسخ وبمداد أحمر وأسود، اللون الأحمر استخدم فى المواضع التى بها عناوين رئيسية أو فرعية، أما الأسود فهو ما كتبت به المخطوطة التى لا تزيد عن مئة صفحة من القطع المتوسط على ورق أصفر سميك، رغم دقة الخط وصغر حجمه، إلا أنه جميل، الغريب أن ناسخ هذا المخطوط هو نفسه ناسخ مخطوط رحلة ابن فضلان إلى بلاد الروس والصقالبة والبلغار والتى يرجع تاريخ نسخها إلى نفس الفترة التى عاش فيها الخليفة المقتدر، ولابد أنه أحد نسّاخ تلك الفترة ممن اشتهروا بجودة النسخ وجودة ما ينسخونه، ورغم ذلك، فلا يوجد له أثر فى أعلام الزركلى مثلاً، ولا حاجى خليفه ذكر عنه شيئاً فى كشف الظنون، ولا فى أعلام المئة الثالثة لابن عبد النبى، ولا الناسخ والمنسوخ للنسخى، أو كتاب بروكلمان عن تاريخ الأدب العربى، لكن نسخة أخرى يتيمة كان قد نسخها، عثر عليها المستشرق الروسى "كراتشكوفسكى" فى نفس الموضوع تقريباً بعنوان "تدبير الأوفاق فى الحث على زيارة بولاق" لمؤلفها الراجى عفو ربه أبو المعالى أحمد بن على البولاقى، وفى الهامش: تم نسخ هذه الرسالة فى الرابع من محرم عام واحد وعشرين وثلاثمئة من التقويم الهجرى الشريف، على يدى الفقير إلى ربه تعالى محمد بن عيسى

الشهير بابن توحيده والمولود فى اليوم السابع من ذى الحجة سنة مئتين وتسعين وواحد والمقيم بضواحى بولاق.

* وللمخطوط حكاية *

دقت الساعة السادسة صباحاً بتوقيت جرينتش، مما يعنى أنها الثامنة صباحاً بتوقيت بولاق الدكرور، ولم أكن قد نمت بعد، فأنا أسهر ليلاً وأنام نهاراً، عادتى منذ الصغر والتى لازمتنى حتى الآن، فجأة دق جرس التليفون الموضوع فوق مكتبى بالبيت، رفعت السماعة وأنصت، عرفته من نبر صوته قبل أن يصرح: صباح الخير، ألم تنم بعد، تعالى فوراً أنا فى مكتبى. وضع السماعة ولم يزد. أخذتنى الحيرة لحظات، ما الذى حدث؟ هو لا يتصل بى إلا نادراً، فلابد أن شيئاً قد حدث، وأنا فى طريقى إليه أخذت أتخيل سيناريوهات مختلفة لا تفضى إلا إلى شىء واحد: هناك كارثة. كانت السلسلة قد ربطت بيننا برباط لا ينفصم، فكلانا يعشق الكتب القديمة، المخطوطات النادرة، رائحة الورق الأصفر المعتق، لذا، فقد نجحت السلسلة، أصبحت الأولى فى العالم العربى فى شهور معدودة، وكان نجاحها يتأكد فى كل عدد. هل حدث خطأ فى العدد الأخير اكتشفه هو قبل صدوره، فالعدد لم يظهر بعد فى السوق، وأنا لم أغادر المطبعة قبل أن أتأكد من كل شىء، الأقلام، الخطوط، الغلاف، ترويسة الصفحة الأولى، أرقام الصفحات التى

كانت بمثابة لغز بالنسبة لنا جميعاً، كانت مكتوبة بالحروف الهندية، لكنا استطعنا أخيراً فك شفرتها، مقدمة رئيس التحرير صحّحتها على الكمبيوتر بنفسي، حتى ظهر الغلاف الأخير، كل شيء كان جاهزاً على أكمل وجه، لماذا يستدعيني إذن؟

يقع مكتبه في الدور قبل الأخير من المبنى الجديد، في الممر المفضي إلى صالة المحررين أخذت أخمن، وسبحت في توهماتي حتى وجدتني على باب حجرته، رغم صغر حجمها، إلا أنها محببة إلى نفسي، مكتبه يقع في مواجهة الباب مباشرة، بينما على الجدران علقت صور لكل عباقرة الفن في العالم، عرفت مكاتب كثيرة لها وقع مختلف على النفس، أغلبها يتسع إتساعاً موحشاً، يقبض من النظرة الأولى، تمشي ساعة قبل أن تقابل أحدهم جالساً خلف مكتبه، وحتى تقابله، تكون واقعاً تحت مرمى بصره طوال مدة سعيك إليه، هذا البراح مقصود ومتعمد، يشعرك أنك وقعت في مصيدة لا فكاك منها، لحظتها، يكون نال منك الإجهاد والخوف والرهبة، والرغبة في الخلاص، ويكون القابع خلف مكتبه قد درسك وعجنك وخبزك فتصل إليه جاهزاً. نقرت على الباب نقراً خفيفاً ودخلت، ابتسم وأشار لي بالجلوس فجلست. مال خلف مكتبه وأخذ يعبث بحقيبته حتى أخرج دوسيهاً ورقياً ناوله لي فوضعته على ترابيزة أمامي وفتحته، كان

مخطوطاً مصوراً تصويراً دقيقاً حتى أننى حسبته للوهلة الأولى نسخة أصلية، لا يتعدى المئة صفحة، قرأت العنوان على غلاف صفحته الأولى:

نزهة المشتاق

إلى

فضائل بولاق

أما المؤلف فكان مجهولاً، فقط اسم الناسخ وضع فى ذيل الصفحة الأولى، حدثنى صاحبى فقال أنه وجد المخطوط معروضاً فى إحدى مكتبات باريس، المكتبة فى حى مونمارتر الشهير، تخصصت فى بيع الكتب والمخطوطات النادرة، ما أن يحل بالعاصمة الفرنسية حتى يذهب إليها، ينفق نهاره كله بحثاً وتنقيباً، يحدوه الأمل فى العثور على النوادر مما لا يتوفر إلا فى هذه المكتبة، وكانت المفاجأة أن وجد هذا المخطوط، كان معه كتاب آخر نادر وضع بجانبه على رف المكتبة فلم يتردد، اشترى صوراً لهما رغم ارتفاع ثمنهما، الكتاب الآخر اسمه أصبح معروفاً بعد نشره فى السلسلة، عنوانه "أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول" تأليف العبد الفقير إلى عفو ربه الكريم الباقى محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد المغنى بن على الإسحاقى المنوفى نفعنا الله به آمين، وبهامشه: تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، تأليف

الامام الشيخ عبدالله الشرقاوى رحمه الله تعالى آمين.

حدثنى فقال إن هذا المخطوط يتحدث عن خطط بولاق، وباعتبارى أحد أبنائها، فأنا به أولى، ففيها نشأت نشأتى الأولى، ومنها خرجت أسعى إلى الدنيا الكبيرة، وإليها أسكن بين أهلى وناسى وصحبى، لم أتركها قط، وإذا تركتها لسفر، أحس غربة ووحشة، وتئن عليها أحشائى، أعرف خططها كما أعرف خطوط كفى، حواريها، دروبها وأزقتها، أسوارها وقصورها وعششها، متنزهاتها وجنائنها القديمة، أحجارها وحصونها وحصاها، ناسها عرفت همسهم ولمسهم وما تخفى صدورهم، هفهفات أفئدتهم، أترصدهم فى كل أحوالهم، أفراحهم وأحزانهم، أضغاث أحلامهم، أتعقبهم فى غدوهم ورواحهم، لا أترك شاردة أو واردة إلا وكانت فى كتاب محفوظ أكتبه بيدى عنهم لهم، لذا، فقد طلب منى كتابة مقدمة تعرف بالكتاب، تقارن بين ما هو مدون وما هو معاش، وها أنا ذا ألبى واتوغل دون تقصير فاللهم أعن.

* * *

* المخطوط *

تنقسم مخطوطة "نزهة المشتاق إلى فضائل بولاق" إلى خطبة هى بمثابة مقدمة، وثلاثة أقسام رئيسية، ويستهل المؤلف خطبته بقوله: أحمده سبحانه حمد العالم بقدرته، وأصلى على سيدنا محمد عبده ورسوله، ونبيه وخليله، سيد

البشر، وأفضل من مضى وغبر.

وبعد فإن علم التاريخ والخطط والآثار من أجل العلوم قدراً، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً، لما يحويه من المواعظ والاعتبار، وإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار، ولماً كان بى شغف عظيم بالترحال والأسفار فى بلاد الله الواسعة للتعرف على أمم وخلائق سادت وعمرت، وأخرى بادت وطمرت، وما خلفوه من خطط وآثار تحسب لهم لا عليهم، لذا فقد أردت إنشاء رسالة فى خطط بولاق وعمارتها وآثارها على غرار رسالتى السابقة والمعروفة باسم "مسالك الأحبة إلى فضائل القبة" وأسميتها "نزهة المشتاق إلى فضائل بولاق" وفيها أصف إن شاء الله أرضها وناسها وأشجارها وطيورها وشمسها وقمرها ونجومها وسماءها وهواءها ومتنزهاتها وأسواقها وحواريها ودروبها، وبالله استعن.

يبدأ القسم الأول بذكر أول من رتب خطط بولاق وآثارها، ثم تتوالى بعد ذلك الأبواب التالية:

* ذكر حدود بولاق وجهاتها.
* ذكر اشتقاق اسم بولاق ومعناها وتعدد أسمائها.
* ذكر أخلاق أهل بولاق وطبائعهم وأمزجتهم.
* ذكر شيء من فضائل بولاق.
* ذكر خراج بولاق فى الزمن الأول.

* ذكر حدائق بولاق ومتنزهاتها.
* ذكر أبواب بولاق الثمانى وأسماءهم.
* ذكر أسواق بولاق.

فى القسم الثانى يبدأ المؤلف بفصل فى الرد على من اعتقد أن بولاق تخطيط عشوائى، ثم بعد ذلك يذكر الحارات والدروب والأزقة والرحبات والخوخ والدور الشهيرة والحمامات والقياسر والسويقات والأحكار والميادين والخوارناقات والقناطر.

ثم يتحدث فى القسم الثالث عن الصناعات والمساجد والجوامع والمدارس والخوانك والزوايا والأحواض والآبار والترع والمصارف والقنوات والقرافات حتى ينتهى بأسماء الأعيان والمشايخ ورجال العلم والعلماء.

* نيل بولاق *

يقول المؤلف رحمه الله واصفاً كيف غيّر النيل مجراه أكثر من مرة: قد تقدم فى غير موضع من هذا الكتاب أن ساحل النيل كان بالمقس، وأن الماء انحسر عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل، وتقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذى ينتهى إلى المقس، وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة إلا وهى تكثر حتى بقى ماء النيل لا يمر بها إلا أيام الزيادة فقط، وفى طوال السنة ينبت هناك البوص والحلفاء، فلما كانت سنة ثلاث عشرة ومائة، رغب الناس فى العمارة بديار مصر

لشغف السلطان بها ومواظبته عليها، فكأنما نودى فى القاهرة ومصر ألا يتأخر أحد من الناس عن انشاء عمارة، وجدّ الأمراء والكتاب والتجار والعامة فى البناء، وصارت بولاق الدكرور حينئذ تجاه بولاق يزرع فيها القصب والقلقاس، وكثر التنافس بين الناس فى هذه الناحية وعمروها وبقيت هذه المسافة العظيمة كلها بساتين وأحكاراً عامرة بالدور والأسواق والحمامات والمساجد والجوامع وغيرها حتى لم يبق فى جميع هذه المواضع مكان بغير عمارة، حتى كان من يمر بها يتعجب من كثرة البساتين والقصور إلى أن انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق، ولم يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن.

* تعليق حول التاريخ الحديث لبولاق.

أين هذا التاريخ من ذلك، كيف أصف حال أهل بولاق الآن، فإن حالهم لا يسرّ عدوا ولا حبيباً، هل أصف بولاق القديمة بناسها النائمين على الطوى، هل أصف حواريها الضيقة مثل شق ثعبان هزيل، أوسع حواريها عرضه متر ونصف المتر، بيوتها تنحنى على بعضها كلما ارتفعت فتحجب الشمس والهواء، الناس يعيشون فى الحوارى أكثر مما يسكنون البيوت، يبنون مصاطب أمام كل بيت ويفترشونها ليل نهار، تجلس العائلات مع بعضها البعض ويعيشون حياة مشتركة، الطعام واحد، الرجال مثل النساء

والأطفال، الكل سواسية أمام جلسة الحارة، الحكاوى لا تنتهى، يتسلون بالحكايات والنميمة فى كل شيء وعن كل شيء، حديث الرزق الضيق هو الغالب دائماً، الأحوال متقاربة حتى تكاد تتطابق، هذه هى بولاق القديمة أما بولاق الحديثة، فالعشوائيات انتشرت، والناس تغيرت، والطبقات اختلطت ببعضها البعض، واكتسحت المبانى الأراضى الزراعية فأبادتها، وامتد العمران مثل سرطان جارفاً أمامه كل شيء، وانتشرت كل أنواع الجرائم، لذا فقد وضعت الحكومة المصرية ثلاث بوابات رئيسية من ناحية الشرق تغلق إذا لزم الأمر، وتكون الحد الفاصل بين عمارة الفقراء وعمارة المهندسين وجامعة الدول العربية.

* فى وصف منزل قديم عشوائى آيل للسقوط *

من عينة عشوائية لمنزل عشوائى قديم آيل للسقوط فى حارة سد سوف نجد أن البيت يتكون من ثلاث طوابق (على الرغم من أن معظم البيوت مكونة من خمسة طوابق بلا قواعد أو عمدان وتقف بالقدرة الإلهية فقط) ومساحته الصافية ستون متراً واجهته ستة أمتار فى عمق عشرة أمتار، مدخل البيت فى المنتصف تماماً، وعلى جانب الحوش توجد عدة حجرات منفصلة ومستقلة بذاتها ولهذه الحجرات حمّام مشترك يوجد دائماً تحت السلم، وهذه الحجرات تسكنها عدة أسر، فهناك أسرة مكونة من ستة أفراد عدا

الأب والأم وجميعهم يسكنون هذه الحجرة، وأخرى مكونة من أربعة أفراد بالأب والأم، والمتوسط العددى لساكنى هذه الحجرات هو أربعة أفراد لا ينقص عن ذلك، مدخل البيت مبلط ببلاط متآكل ومكسور ويكاد يختفى فى الأرض الطينية التى هبطت فى عدة مواضع، مياه الصرف الصحى برائحتها الكريهة تكّون بركاً صغيرة فى أركان المدخل، الحوش مظلم ،ويوحى بالكآبة، أما السلم الصاعد إلى الدور الثانى والثالث فهو من الحجر الجيرى المتآكل يوحى إليك أنه على وشك التداعى، الطابق الثانى والثالث يتكونان من حجرات مثل الدور الأول، أما الحجرات نفسها فجدرانها إما على الطوب الأحمر أو على المحارة أو مطلية بالجير الأصفر والأخضر والأحمر، والمنزل بجملته من الخارج على الطوب الأحمر بلا أية دهانات، وعن أحوال الناس ومهنهم وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية فهو ما يحتاج لدراسة وافيه ليس مكانها فى هذه الحاشية.

* ذكر مجيء محمد بن عبد الجواد أول من تعلم صنعة البناء واستيطانه فى أرض بولاق وإعادة إعمارها على يديه.

فى حوادث سنة خمسين ومائة يذكر المؤلف خروج محمد بن عبد الجواد كبير الجوادية من أرض كوم الضبع بأقليم المنوفية ممتطياً بغلته بحثاً عن أرض تصلح للإقامة والعمل بعد أن شحّت المؤونة وضاق الرزق، متتبعاً طرقاً ومسالك لم

تكن مألوفة فى ذلك الوقت، فقد سار عبر طريق اكتشفها هو وحده وصارت تعرف به حتى رسا على ساحل بولاق من الناحية الغربية، وتلفت حوله فلم يجد سوى أرض شاسعة مزروعة بالحلفاء ولا يوجد صريخ ابن يومين، لأن العمارة التى كانت أنشئت من قبل دمرت بفعل فيضان النيل الذى حدث سنة ثلاثين ومائة آخذا فى طريقه كل الدور والقصور والبساتين فهجرها الناس. فضرب عبد الجواد كفاً بكف وقال كلمة لا يخجل قائلها: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله. وسارت بغلته حتى وقفت من تلقاء نفسها ولم تستطع التقدم خطوة واحدة لأن قوائمها انغرزت فى الطين والوحل حتى صدرها، فنزل عنها وخط عند آخر حافر لها قواعد البيت القديم الذى توارثه الأبناء جيلاً بعد جيل حتى آل إلى كاتب هذه السطور، أما موضع قوائم البغلة فقد أصبح مزاراً سياحياً يعرف بقوائم البغلة ويقع عند الناحية الشرقية من أول بولاق الدكرور، ومنذ تلك اللحظة الفاصلة فى تاريخ عائلة عبد الجواد تعلم عبد الجواد الكبير حرفة البناء، وصارت بولاق الدكرور فى عهده أفضل مما كانت عليه قبل فيضان النيل.

* نادرة *

ذكر بعض المؤرخين أنه فى سنة من السنين سكن بعض الناس عند الموضع المسمى بقوائم البغلة، وحدث أن فقدت بغلة لهم وضلت طريقها وفقدوا الأمل فى العثور عليها، وفى أحد الأيام وبينما يمرون عند ذلك المكان، وجدوا البغلة

مغروسة القوائم ومقيدة، فشاع الخبر وانتشر أن من له دابة فقدت منه فليبحث عنها عند قوائم البغلة، وصار ذلك الموضع مكاناً للزيارة والتبرك وكثرت أعمال الدجل والشعوذة والنصب حتى أن البعض كان يسرق الدواب ثم يقوم بتقييدها عند قوائم البغلة، فسمع الخليفة بذلك الأمر، فأمر بهدم ذلك الموضع وأن لا أحد يسكن عند تلك المنطقة، فهجرت منذ ذلك الزمن وأصبحت مأوى للجن والعفاريت.

كان النيل يفصل بين شاطىء البولاقين، بولاق التكرور التى صارت مع مرور الوقت بولاق الدكرور، وبولاق المنسوبة لسيدى أبو العلاء الذى استوطن فى تلك البقعة وابتنى جامعاً على الشاطىء الشرقى للنيل، ومن داخل الجامع مقامه المعروف، ثم تكونت جزيرة الفيل - الزمالك الآن - فقسمت مجرى النهر إلى نصفين، وأخذت بولاق الدكرور تتراجع وتنفصل عن شط النيل حتى أصبحت على ما هى عليه الآن.

يقول الراجى عفو ربه: واعلموا - يرحمكم الله - أن الجيزة اسم لقرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربى تجاه مدينة فساط مصر، لها فى كل يوم أحد سوق عظيم يجىء إليه من النواحى أصناف كثيرة جداً (مازال السوق مقاماً حتى الآن، ولكن تغير اليوم فقط فأصبح الثلاثاء بدلاً من الأحد) ويجتمع فيه عالم عظيم، وبها عدة مساجد جامعة، والجيزة الناحية والجانب، وجمعها جيز وجيز،

والجيز جانب الوادى، وقد يقال فيه الجيزة، وقيل أن جيزة جاء من اسم الملكة جيزة زوجة الملك سيف بن ذى يزن، وما بولاق الدكرور إلا ضاحية من ضواحى الجيزة، وسوف نتحدث بالتفصيل عن هذه المدينة العظيمة، وذلك فى رسالتنا القادمة والتى اسميناها: الميزة فى محاسن الجيزة - إن شاء المولى تعالى.

* هوامش أخيرة حول كتاب نزهة المشتاق *

وبعد، هذه مقدمة وجيزة أردنا فيها استعراض بعض أهم أبواب هذا الكتاب النفيس لقراء العربية، بعد أن عرفه العالم أجمع كواحد من أهم كتب التراث العربى، تأتى أهمية هذا الكتاب فى جمعه بين شتى صنوف الأدب مثل الشعر والنثر وأدب الرحلة والخطط والنوادر والملح، وهو ما يؤكد الظن لدينا أن مؤلفه كان عالماً وأديباً واحد حكائى عصره.

بقيت نقطة أخيرة نحب أن نوضحها، وهى أن هناك خلطاً فى كل أجزاء الكتاب بين بولاق الدكرور وبولاق أبى العلاء، هذا الخلط نجده فى القسم الأول، وتحديداً فى الصفحات ١٥، ١٨، ١٩، ٢٣، وهى الفقرات المقتبسة من كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى المتوفى أواخر القرن السادس الهجرى، فهو لا يفرق بين البولاقين، فحين يتحدث عن بولاق، فانه يتحدث عن بولاق الدكرور التى كانت تنطق بالتاء أى التكرور، والعكس حين يذكر

بولاق الدكرور فإنه يعنى الأخرى.

كذلك ينقل عن ابن تغر بردى من كتابه الشهير اتعاظ الحنفا (الذى تشرفنا بنشره فى السلسلة) فقرات تتحدث عن بولاق الدكرور وهى إنما تعنى بولاق أبو العلاء ذاكراً أنها تقع شرق النيل، أيضا ينقل عن محمد بن عبد الحكم الذى ذكر فى كتابه فتوح مصر وأخبارها حوادث سنة الفين قبل الميلاد أنه بعد غرق فرعون موسى وجنوده، حكمت البلاد ملكة تدعى "دلوكة"، وأنها أرادت حماية البلاد من طمع الغزاة فبنت حائطاً سمى بحائط العجوز، وأن هذا الحائط اكتمل بناؤه عند منطقة تقع شرق النيل تسمى بولاق. والصحيح أنها بولاق الدكرور غرب النيل لوجود أجزاء من هذا الحائط لم تهدم بعد ويعرف الآن باسم سور باسيلى يستخدم كسوق للخضار والفاكهة.

ويبقى السؤال الخطير الذى يثيره هذا الكتاب، وهو ما يحتاج إلى دراسة مقارنة محققة هو فى أى عصر كتب؟ ومن كاتبه؟ ذلك أنه فى الوقت الذى تشير الدراسات أن ناسخه عاش فى القرن الثالث الهجرى، نجد إقتباسات من كتب تنتمى إلى القرن العاشر والثانى عشر، مما يجعلنا نشك فى صحة نسبة هذا الكتاب إلى عصره، وأنه من الكتب الكثيرة المنتحلة كتبتها أيدٍ معاصرة بغرض تشويه وجه التاريخ.

* * *

تمارين على الكتابة

أنا وحيد

هكذا أعلن "سعيد فرحان بينه وبين نفسه فى لحظة أسيانة شفَّت ورقَّت حتى أن روحه أخذت ترفرف تكاد تنطلق من جسده، وهو بعد لم يضع تلك اللحظة - لحظة حزنه - تحت مجهر المنطق الذى لازمه فى كل لحظاته المشابهة السابقة: حقيقة لحظة الحزن والوحدة تلك، هل هى زائفة تعبيراً عن فراغ ما يعانيه، هل هى صادقة كتلك التى تأتى دائماً كإرهاصة أولى للحظات الكتابة حيث يدخل جحيم الكلمات، ولا يخرج قبل أن ينتهى من قصته أو روايته، هل لأن الليلة هى ليلة رأس السنة الأخيرة فى هذا القرن، حيث يكمل عامه الستين، بينما العالم يحتفل بدخوله القرن الجديد باحتساء الملايين من كئوس الويسكى والشمبانيا، وهو وحده يجلس خلف مكتبه، وأمامه، وضع كوب شاى ساخن تصاعدت منه رائحة النعناع، وتلفت سعيد فرحان حوله فما وجد سوى حجرته التى أغلقها على نفسه، وعشرات الأرفف إنتظمت حوله وتكدست بكتب ومجلدات تحوى آلاف القصص، آلاف الروايات، آلاف السير الذاتية وكتب الفكر والفن والفلسفة والمنطق وعلم النفس والميتافيزيقا، وبضعة كتب قام هو نفسه بتأليفها حين كان

يحب أن يؤلف قصصاً وروايات بنفسه بدلاً من تلك التى كان يقرأها فيصدم فى مشاعره، أولا يشعر بمتعة المشاركة فى الخلق على الورق والاكتفاء فقط بالقراءة. وتجرأ سعيد فرحان فأمسك القلم بأصابع ترتعش لأنه أراد لها أن ترتعش لإضفاء مزيد من القدسية والمهابة لتلك اللحظة التى أحب أن تتجاوز مأساويتها كل الحدود الممكنة، وخط على الورق الأبيض جملته بعد أن عدّلها قليلاً:

«أنا وحيد وتعس»

وفرح سعيد فرحان بعد كتابة جملته، وأخذ ينظر إليها ويتأملها وقد رجع بكرسيه الهزّاز إلى الوراء قليلاً، وأغرورقت عيناه بدموع الدهشة لإمساكه القلم ببساطة، ومن عدم رهبته وتحديه للورقة البيضاء الموضوعة أمامه، والتى ظلت بيضاء طوال أكثر من عشرين سنة، منذ أن أعلن على الملأ كفه عن الكتابة واعتزاله الامساك بالقلم مرة أخرى، وبحركة تمثيلية كانت موفقة كسر قلمه أمام مندوبى وكالات الأنباء العالمية، فسّر ذلك وقتها بأنه احتجاج على انهيار الاتحاد السوفيتى وتفتت الكتلة الشرقية وانتصار الرأسمالية وحصار ليبيا وضرب العراق، والحرب الأهلية فى السودان، وعزلة مصر، ومحاولة تقسيم العالم وفق الأهواء الأمريكية الاسرائيلية، واتفاقية الجات، والخصخصة، وما يحدث فى السلفادور وإقليم الباسك والشيشان والسوق

الشرق أو سطية، والفتنة الطائفية وفضيحة كلينتون مونيكا، ونزول اليورو، وتوحيد أوروبا وتفكك العالم العربي. قال: لكل ذلك فإن العالم أصبح غير ملائم لى، لذا فإنى أعلن انسحابى من المشاركة فى هذه المهزلة الكونية. لكن كل هذه الأسباب لم تكن حقيقية بالنسبة له، السبب الحقيقى أعلنه همساً فى سره، فمن أين له أن يأتى بالقصص والروايات بعد ذلك؟ لقد أفلس تماماً ولم يعد يعرف كيف يكتب، حتى تلك الخبرات التى إكتسبها طوال مزاولته لمهنة الكتابة لم يعد يتذكرها، أبسط القواعد: كيف يبدأ قصة أو رواية، الكلمة المفتاح التى يبدأ بعدها فى رواية الأحداث، الإيقاعات التى كانت تطنُّ فى اذنه أثناء الكتابة فيضبط عليها كل شىء، السرعة أو البطء، طول الجملة أو قصرها، تقديم الفعل أو تأخيره، إيقاع الجملة من السطر، والسطر من الصفحة، والصفحة من الرواية كلها، وكلما تذكر أنه كان يجلس بالساعات خلف مكتبه يسمع صرير القلم على الورق الأبيض الذى يتحول بقدرة قادر إلى حروف سوداء وكلمات وبشر ينفخ فيهم من روحه فيحيون، ويظل يحاورهم ويعايشهم ليال وأيام وشهور فيملأون عليه حجرته ويعيشون دنياه، كلما تذكر أصابته الدهشة وتساءل: من أين كان يأتى بتلك الأفكار والأحداث والبشر؟ من أين كانت تأتى القصص أصلاً؟ وكيف ظل ملهماً طوال ثلاثين سنة لم يترك

قلمه قط، بل كان منتصباً دائماً مثل قلمه الآخر الذى لم يخذله فى كل معاركه التى خاضها فاتحاً وغازياً هادماً حصوناً وقلاعاً لممالك لا حصر لها، هو وحده يعرفها، حتى أنه كان يتندر معتزاً بفحولته فخوراً بها، كان يضحك قائلاً أن قلميه لم يكن فى حاجة لإثارتهما حتى ينتعظا ولا يتوقفا قبل أن يشبع كتابة على الورق والجسد، اليست بينهما أواصر من حبر ودم لم تنفصم عراها منذ أن بدأ الكتابة على شكائر الأسمنت التى كان يحضرها أبوه البناء إلى البيت بعد إنتهاء عمله، كان البيت مميزاً بشكائر الأسمنت والمسطرينات والموازين الخيط والفئوس والكواريك والمهزات وقصاع المونة، لكنه خال تماماً من ورقة أو قلم أو كتاب، فكان عليه أن يبدأ بتأسيس عدته الخاصة وأن يستفيد من مهنة الأب والأخوة على الورق، من تعبيراته الأثيرة فيما بعد أن العظماء لا يحتاجون إلى أدوات، هم يخترعون أدواتهم، وفيما يتعلق بالورق الذى لم يكن ليجده بسهولة قال أن بعضهم كان يكتب على شقف أو قطعة صابون أو تذكرة أتوبيس قصائد خلدّها التاريخ، وقد تزامن صعوده سلم مجده وشهرته مع تزايد وعيه الفائق بكيفية استخدام القلم المناسب فى الوقت المناسب، فلكل كتابة قلمها الخاص، فحين كان يمتلك وعياً طفولياً، كان القلم البوص أو الكوبيا هو الأنسب للتعبير عن إلتهاب

العواطف، أما القلم الرصاص فهو الأنسب للمواقف السياسية والنضالية الحادة التى تتطلب بعض المناورات وتعديل المسارات، فلا تتطلب سوى مسح ما كتبه بأستيكة وكأن شيئاً لم يكن، والبدء مرة أخرى برؤية أخرى، وقد جاء إستخدامه لقلم الحبر بماركاته الشهيرة بعد أن استقرت قناعاته وتحددت رؤاه. عدل فى جملته الموجودة فى منتصف الورقه وأضاف فأصبحت:

«أنا وحيد وتعس وخائب الرجاء»

ذلك أنه بعد أن ملأ الدنيا كتابة متواصلة بلا انقطاع، رحلت أفكاره الملهمة فجأة، ورغم إمتلاء حياته بالاحداث والتواريخ والشخصيات، تلك الشخصيات التى تعرّف عليها أو التى ابتدعها على الورق، وبث فيها روحه ودمه حتى أضحت أكثر حيوية وحياة من شخصيات حقيقية كثيرة، إلا أنه يعيش الآن وحدته الخاصة فى زمنه الخاص، كما تمنى، متوحداً مع نفسه، بينما يجلس خلف مكتبه، وبين يديه الورق الأبيض والقلم يجرى فيحبّر المساحات البيضاء كلما أوغل فى أفكاره، أن تخرج تلك الشخصيات من بين السطور والورق، أن تتحرر من الأرفف والكتب، تلتف حوله لتملأ وحدته، تحدثه أن حياته لم تذهب عبثاً، وأنه شارك فى صنع حياة أخرى، أكثر بهجة وجمالاً، وما كانت هذه الشخصيات والأحداث لتوجد لولاه، حتى زوجته وأولاده ما

كانوا ليوجدوا لولا أنه أوجدهم بخياله أولاً، ذلك الخيال الجامح الذى شرق وغرب حتى وصل إلى بلاد واق الواق وحدود الدنيا المعمورة حتى جبال قاف، وعاش مع المردة والشياطين والجان وكائنات الخرافة، وأدار دنياه المتخيلة من خلف مكتبه الذى يشعر فيه بالوحدة الآن، على الرغم من توغله فى الكتابة، وأن حدة احباطاته خفّت قليلاً، وغربته عن القلم بين أصابعه أخذت فى التراجع، ورعبه من الصفحات البيضاء تلاشى. فكّر فى الكتابة عن تلك الأشياء الحميمة التى كانت تثيره، والتى كان كلما تذكرها جرى إلى مكتبه وتدفّق، حتى أنه كان يمنع نفسه بالعافية. حيلة معروفة، لكنها لم تعد تفلح معه، فقد تزاحمت الأفكار فى رأسه دفعة واحدة، وتداخلت فى بعضها البعض، وبات من المتعذر استخلاص واحدة بمفردها، وهو ما يسميه بالتلبك الفكرى، ولجأ إلى حيلة أخرى، فما من رواية أو قصة كتبها إلا على إيقاع كان يطن فى رأسه، كل كتابة لها إيقاعها الخاص. هز رأسه موافقاً تماماً على تلك الجملة، لكنه يذكر أيضاً أن ما من إيقاع إلا وكان مصحوباً بفكرته، اليس العكس صحيح أيضاً؟ الإيقاع أولاً أم الكتابة؟ لم يعد يتذكر، لكنه يذكر جيداً حلم حياته، تحويل الموسيقى إلى كلمات، أن يجعل الموسيقى تُقرأ وتُسمع فى آن معاً، فى كل قصصه ورواياته، كانت ثمة موسيقى تطنُّ فى رأسه لحظة

الكتابة، لكن ما بال الايقاعات تهرب هى أيضاً، حتى إيقاع حياته اختل، فى البداية كان يردد مقولة أصبحت إحدى كليشهاته، على الكاتب الحق أن يُغيِّر من إيقاعاته وإلا وقع فى النمطية، لكن أن يكون لك إيقاعك الخاص ومن ثم تقوم بتغييره شىء، وألا يكون لك فذلك شىء آخر، هذا هو الخراب، هو فقدان الهوية بعينه، وهو ما يشعر به الآن، حالة فقدان تامة للإيقاع على كافة المستويات. كتب وسط الصفحة بالخط العريض:

«أنا كاتب يفتقد الإيقاع»

وأجرى محاكمة سريعة لنفسه، ورجع للبدايات الأولى، فربما أفلح فى الامساك بلحظة ما تعيده للياقته الذهنية، تعيد إليه ذلك الايقاع الذى نجح فى الامساك به طوال سنين عديدة، كان فقط، وبمجرد جلوسه خلف مكتبه، أمامه الورق الأبيض وقلماً إختاره من بين عدة أقلام، والراديو خلفه يبث موسيقى موزعة عبر السماعات فى أرجاء الحجرة، ومن حوله الليل يسمع هسيسه، والمدينة كلها فى حالة سبات عميق، إلا هو ابن الليل الحقيقى، ففيه ولد، وفيه عاش أجمل لحظات الخلق الغنى، وفيه ناجى أحبته، وفيه عرف كيف يوصل جسده بجسد آخر ويذوب فيه محلقاً فوق ذرى من اللذة النورانية، ويعرف أيضاً أن رحلته سوف تنتهى ليلاً، يكفى أن يشم رائحة ما قديمة، أو ذكرى عابرة، أو

حديثاً دار ذات يوم، أو إيماءة فى الفراغ من شخص ما لشخص ما، حتى يمسك بالقلم ولا يتركه إلا وتكون القصة قد اكتملت، أو الرواية قد بدأ فصلها الأول، أخطر الفصول وأصعبها على الاطلاق، فهو الذى يحدد شكلها وملامحها، طولها وقصرها، مصائر أبطالها وحياتهم، شقاؤهم أو سعادتهم. كتب مرة فى إحدى المجلات الأدبية حين طلب منه بعض النصائح للأجيال الجديدة تحت عنوان:

كيف تكتب القصة القصيرة؟

إن الجملة الأولى فى أية قصة هى الأصعب، وأن قرار كتابتها لهو من أخطر القرارات التى يمكن إتخاذها، فهو أصعب مثلاً من قرار شن حرب نووية - هكذا كان يتصور أيامها - فبمجرد أن تتخذ قراراً بكتابة الجملة الأولى، يكون كل شيء قد خرج من يدك، فمصير أمم وخلائق معلق بين يديك الآن، وحياة كاملة سوف تدب منذ تلك اللحظة على الورق، لذا، فالبداية دائماً صعبة، وعليك توخى الحذر من البدايات، البدايات الخاطئة تؤدى إلى نهايات خاطئة، هكذا تعلمنا من السلف الصالح، لتكن بدايتك جملة خاطفة، مفاجئة ومركّزة مثل قنبلة موقوتة توشك على الانفجار، إذا فعلت ذلك أضمن لك الباقى، إعرض أفكارك الرئيسية، ثم حوِّم قليلاً حولها، شرّق وغرّب، إرتد إلى الوراء قليلاً، هات نتفاً من ذكريات طفولتك، أصدقائك،

جيرانك، إمزجها ببعض قراءاتك فى مواضيع شتى، إتكىء على التراث قليلاً فيغنى قصتك، ولا ترجع إلى موضوعك الرئيسى الذى بالطبع تكون قد نسيته - فلا تنس أرجوك - إلا قبل النهاية بقليل، ثم الدغ كالنحلة وفر هارباً بعد أن تجعل النهاية مفتوحة وهذا يعطى القصة أو الرواية تأويلات مختلفة، ألم تكتمل القصة بعد؟.

إبتسم للمفارقة حين تذكّر أنه كتب نصائح هو أيضاً، ذلك تماماً ما كان يفعله الآخرون به ودائماً ما كان يسخر من تلك النصائح، وطفت على الذاكرة نصائح بعينها، ظلت على مدى سنوات هى العالقة بالذاكرة، وهى الأكثر مدعاة لسخريته طوال الوقت، كان درج الكنبة الاسطانبولى قد امتلأ عن آخره بالقصص، لم يكن وقتها يملك مكتباً ولا أية أدراج سوى درج الكنبة، ولم يفلح فى نشر قصة واحدة رغم سعيه الدائم على دور الصحف والمجلات ولكن دون جدوى، وفى إحدى المرات قابله أحدهم، روائى وصحفى وقصاص له أكثر من عشرين كتاباً وقتها، أجلسه بجانبه وطلب له شاياً وقال له: يا عزيزى إذا أردت أن تكتب كتابة جيدة فاليك سبع وصايا ضعها حلقة فى أذنك وإلا فعليه العوض فيك:

الوصايا السبع

قال له: لا تكتب وأنت ممتلىء المعدة

وقال له: إشبع جنسياً أولاً ثم أكتب

وقال له: حوِّم كالفراشة والدغ كالنحلة - فى قصصك طبعاً -.

وقال له: اكتب عما تعرفه وما لا تعرفه - سيان - .

وقال له:

عصر ذهنه عله يتذكر بقية الوصايا، لكنها انمحت تماماً من ذاكرته فهز رأسه تأسفاً، حتى الذاكرة أفلتت منه هى أيضاً، يحدث ذلك كثيراً خاصة فى الآونة الأخيرة، فقدان مفاجىء فى الذاكرة يجعله ينسى أقرب الأشياء إليه، من المؤكد أن بقية الوصايا تدور فى نفس المعنى، شطب الوصايا السبع وكتب بدلاً منها: الوصايا الأربع لمن أراد أن يكتب. كانت الصفحات قد امتلأت فتوقف قليلاً، وأخذ يقرأ ما كتبه وهز رأسه وأمسك القلم مرة أخرى وكتب أسفل الصفحة جملة أخيرة: كل هذا هراء.

صدر للمؤلف

قصص

1- حكايات الديب رماح: طبعة أولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987
طبعة ثانية - مركز الحضارة العربية 1995

2- حرب أطاليا: طبعة أولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1988
طبعة ثانية - مركز الحضارة العربية 1998

3- حرب بلاد نمنم: طبعة أولى - مركز الحضارة العربية 1997

روايات

4- كتاب التوهمات: طبعة أولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992
طبعة ثانية - مركز الحضارة العربية

5- العاشق والمعشوق: طبعة أولى - دار شرقيات 1995
طبعة ثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب(مكتبة الأسرة) 1996
طبعة ثالثة - مركز الحضارة العربية 1998
ترجمت إلى الفرنسية عن دار النشر جاليمار 1998
قررت على طلبة كلية دراسات عربية
فرع الفيوم - الفصل الدراسى 1997/96

6- مسالك الأحبة: طبعة أولى - مركز الحضارة العربية 1997
قررت على طلبة السنة الرابعة
كلية التربية الفنية - الفصل الدراسى 1999/1998

7- الجنى: طبعة أولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999

8- يومية هروب: جزء أول - طبعة أولى - مركز الحضارة العربية 1999

طبعة ثانية - دار الانتشار العربى - بيروت 2000

كتب معدة للنشر

1- يومية هروب - الجزء الثانى

2- يومية هروب - الجزء الثالث

3- قمر الأقمار - كتاب السحر - رواية

4- القصص الشعبى الدينى فى مصر - دراسة ونصوص

5- سيرة حب - رواية

6- جيل الحكايات - رواية

فهرس